
أولادنا
الزنبقة السوداء
عن : الكسندر دوماس
بقلم : عادل الغضبان
دار المعارف

ألكسندر دوماس

Alexandre Dumas

ألكسندر دوماس (١٨٠٢ - ١٨٧٠) ، كاتب فرنسي وضع عدداً كبيراً من الأعمال المسرحية والروايات التاريخية . لُقِّب بـ « دوماس الأب » (Dumas pere) لأن ولده غير الشرعي ، الذي إشتهر أيضاً كروائي وكاتب مسرحي ، كان يُعرف بإسم « دوماس الإبن » .(Dumas Fils)

نال ألكسندر دوماس قسطاً ضئيلاً من التعليم النظامي ، لكنه نمّى ثقافته ، وخاصة التاريخية ، أثناء أوقات فراغه حيث عمل بادىء الأمر محرّراً في مكتب كاتب عدل ، ثم في خدمة الدوق أورليان (Duke of Orléans) ، ولاحقاً في بلاط ملك فرنسا لويس فيليب (Louis Philippe) .

تميّز إنتاجه الأدبي بالجودة والغزارة ، إذ نُشر بتوقيعه نحو ١٢٠٠ كتاب ، لكن كثيراً منها جاء بنتيجة مشاركة

الآخرين في الإنتاج ، أو تكليف البعض بتنفيذ أفكاره لقاء أجر والإسترشاد بتوجيهاته . وبرغم ذلك فقد حافظت أعماله على جودتها وعكست شخصيته الفذّة .

كان دخله وفيراً من أعماله ، لكنه ما لبث أن شحّ في سنوات حياته الأخيرة ، حتى مات وهو يعاني الفقر الشديد .

من أشهر رواياته : « الفرسان الثلاثة » (*Les Trois Mousquetaires*) ، « الكونت دي مونت كريستو » (*Le Comte de Monte Cristo*) ، و « الزنبقة السوداء » (*La Tulipe Noire*) .

تروي هذه الأخيرة ، كما سنرى ، قصة رجل هولندي يدعى **كورنيليوس فان بيرل** (Cornelius Van Baerle) ، أحب الزهور وعمل على استنبات زنبقة سوداء للفوز بالجائزة الكبرى ، لكنه فاز ، بعد إعتقاله بوشاية من جاره **إسحق بوكستل** (Issac Boxtel) ، بقلب إبنة حارس السجن **روزا** (Rosa) الجميلة .

الفصل الأول

الحياة السعيدة

في بلدة دورت الصغيرة في هولندا ، عام ١٦٧٢ ، كان يعيش رجل ينعم بسعادة حقيقية . في العالم قلّة هم السعداء بين الناس ، وكان كورنيليوس فان بيرل واحداً من هؤلاء القلّة .

بدأ كورنيليوس العمل فاشتغل بالطب ، لكنه ما لبث أن اعتزل هذه المهنة إثر وفاة والده .

سبق لوالد فان بيرل أن كسب الكثير من المال في التجارة . وحين شارف على الموت قال لابنه كورنيليوس : «كن سعيداً . فالعمل في المكتب طوال اليوم ليس بحياة سعيدة . لا تكن تاجراً مثلي ، أو رجل سياسة مثل كورنيليوس دي ويت، فلا شك أن نهايته ستكون حرجة . عش هادئاً، وكن سعيداً قبل كل شيء» .

وهكذا بقي كورنيليوس فان بيرل في البيت الكبير. لم

يكن يدري كيف يمضي وقته، فراح يزرع الزنبق. كان الناس حينذاك يهتمون كثيراً بزراعة الزنبق، فتُعطى الجوائز القيّمة لمن يستنبت نوعاً جديداً من الزنبق، في أي شكل أو لون جديد. إستنبت فان بيرل ثلاثة أنواع جديدة من الزنبق سمّاها: جين (على إسم أمه)، وفان بيرل (على إسم أبيه)، وكورنيليوس (على إسم صديق والده كورنيليوس دي ويت).

كان يسكن في المنزل المجاور لـ فان بيرل رجل يدعى إسحق بوكستل، من زارعي الزنبق أيضاً، لكنه لم يكن ميسور الحال. كان يعمل بجهد كبير ـ ويكره فان بيرل، مخافة أن يستطيع هذا الغني زراعة زنبق أفضل من زنبقه. فينظر من فوق سور الحديقة ليراقب ما يفعله فان بيرل، حتى بلغ به الحال أن اشترى تليسكوباً ينظر به عبر نافذة فان بيرل فيراه وهو يعالج بذوره وبصيلاته، فالزنبق ينمو من البصيلات. وحين رأى حديقة فان بيرل ملأى بأجمل الزهور، عمد إلى ربط هرتين بعضهما إلى بعض وأسقطهما من فوق السور في الليل، فتسبّبت الهرتان بتكسير الزهور جميعاً.

إثر ذلك، وضع فان بيرل حارساً في الحديقة يحمي

زهوره من المرزة، إذ لم يكن يعلم أن بوكستل هو الذي وضع المرتين هناك.

في ذلك الوقت بالذات كانت ثمة جائزة لمن يستنبت زنبقة سوداء ليس فيها أي لون آخر، وكانت قيمة الجائزة مئة إلف غيلدر.

شرع فان بيرل بالعمل، فزرع زنبقاً بلون أحمر قاتم، واستخلص منه زنبقاً بني اللون، وحصل في العام التالي على زنابق بنية داكنة اللون.

أما بوكستل فلم تكن لديه إلى ذلك الحين سوى زنابق بنية فاتحة اللون، فغضب غضباً شديداً حتى بات لا يستطيع العمل. لم يستطع سوى مراقبة فان بيرل، فيجلس إلى منظاره يراقب فان بيرل وهو يعالج بصيلاته وبذوره ليمزج نوعاً من الزنبق مع نوع آخر. وكلما استطالت مراقبة بوكستل لفان بيرل، إزدادت كراهيته له.

وفي ذلك الوقت بالذات وصل كورنيليوس دي ويت إلى البلدة.

الفصل الثاني

الرسائل المهمة

وصل كورنيليوس دي ويت إلى منزل فان بيرل في ليلة من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٦٧٢ . جال النظر في أرجاء المنزل، ورأى كل شيء، ثم قال: «أود الإنفراد بك لبضع دقائق».

قال فان بيرل: «تعال إلى غرفة بذوري».

في أثناء ذلك كان بوكستل يراقب كل شيء بمنظاره.

تناول فان بيرل قنديلاً ومشى أمام دي ويت إلى غرفة البذور، حيث الصندوق الكبير الذي تحفظ فيه البذور والبصيلات. وراح بوكستل يحدق عبر المنظار أكثر مما مضى، وشاهد الضوء ينتشر في الغرفة، ثم رأى دي ويت وعرف من يكون، إذ أن كورنيليوس دي ويت كان ذائع الصيت كزعيم في الحكومة.

تلفّظ دي ويت ببضع كلمات إلى فان بيرل، لكن بوكستل لم يستطع تمييز الكلمات. إذ ذاك أخرج دي ويت مجموعة أوراق ربطت سوياً، وأعطاها إلى فان بيرل، وكان واضحاً أن الأوراق مهمة للغاية. ظن بوكستل أنها أوراق عن قضايا تتعلق بالحكومة، لكنه تساءل: لماذا تعطى أوراق حكومية إلى فان بيرل الذي لم يكن له إهتمام بالشؤون العامة؟

كان بوكستل يعلم أن الشعب لا يحب كورنيليوس دي ويت، وأنه يزداد كراهية له مع كل شهر. لربما كانت تلك الأوراق من أسرار الحكومة التي لم يشأ دي ويت أن يطّلع عليها أحد.

تناول فان بيرل الأوراق ووضعها في صندوق مع بصيلاته، ثم قال دي ويت شيئاً، وصافح فان بيرل، وخرجا معاً من الغرفة. وبعد فترة وجيزة خرج دي ويت إلى الشارع.

كان بوكستل مصيباً في أفكاره، فالأوراق التي أعطاها دي ويت إلى فان بيرل كانت رسائل إلى ملك فرنسا ـ لكن دي ويت كان من الحذر بحيث لم يخبر صديقه عن فحوى الأوراق،

بل طلب إليه الإحتفاظ بها بعناية وعدم تسليمها إلى أحد سواه أو شخص يرسله إليه.

خبّأ فان بيرل الأوراق في الصندوق ولم يعد يفكر بها مطلقاً.

الفصل الثالث

رسالة من السجن

كانت هايغ المدينة الرئيسية في هولندا، وفي العشرين من آب (أغسطس) عام ١٦٧٢، كانت شوارعها ملأى برجال يحملون البنادق ويسرعون الخطى بإتجاه السجن.

خارج أبواب السجن، وقفت مجموعة من الخيّالة تصد حشد الناس، وفي داخل السجن، كان كورنيليوس دي ويت وأخاه جون دي ويت.

صرخ الجمهور: «هيا إلى السجن! لن يهرب الأخوان دي ويت! أقتلوهما!»

بقي الجنود خارج السجن من غير حراك، فصرخ الجمهور: «أقتلوا الأخوين دي ويت!»

تقدم قائد العسكر على صهوة جواده، وقال:

«ماذا تريدون؟»

«نريد الأخوين دي ويت! نريد قتلهما».

قال القائد: «أوامري هي عدم السماح لأحد بالإقتراب من السجن، فإن إقتربتم أكثر، سأطلق النار!».

تراجع الجمهور إلى الوراء.

أما داخل السجن، فقد كان كورنيليوس دي ويت مستلقياً على السرير يعاني المرض، وبجانبه يقف جون، فقال :

«عزيزي كورنيليوس، هل تشعر بتحسن؟ لديّ عربة قريباً من خلف السجن، على أتم الإستعداد لتأمين هروبك».

صاح الجمهور: «الموت للأخوين دي ويت!»

فقال كورنيليوس: «أسمع صوت حشد من الناس».

أجاب جون: «بلى، إنهم يصيحون ضدنا بسبب رسائلنا إلى ملك فرنسا. أين تلك الرسائل؟»

أجاب كورنيليوس: «تركتها مع فان بيرل. إنه يسكن في دورت».

صرخ جون: « فان بيرل ! مسكين فان بيرل ! إنه لا يدرك شيئاً عن هذه الأمور ، ولسوف يقتل أو يودع السجن إن عثر على الرسائل في منزله » .

صاح الجمهور من أسفل : « الموت للأخوين دي ويت ! » .

وقال جون : « يجب إحراق تلك الرسائل . ولا بدّ من توجيه الطلب إلى فان بيرل لإحراقها » .

قال كورنيليوس : « من نستطيع أن نرسل ؟ » .

أجاب جون : « أرسل خادمي ، كريك . إنه هنا » .

كان ثمة كتاب على الطاولة ، فتناوله كورنيليوس ، ونزع صفحة منه وكتب عليها :

« عزيزي فان بيرل . . .

أرجو إحراق الرسائل التي أعطيتك إياها من دون النظر إليها ، إذ تعرّض سلامتك للخطر بالإطّلاع على مضمونها . فبادر إلى إحراقها فتنقذ حياة وسمعة كورنيليوس وجون دي ويت » .

كورنيليوس دي ويت

٢٠ آب (أغسطس) ١٦٧٢

تناول جون الرسالة وأعطاها إلى كريك .

وعلا ضجيج الجمهور : « الموت للأخوين دي ويت » .

فقال جون : « هيا ، علينا أن نذهب » .

شق رجل طريقه عبر الجمهور ، وقال :

« لدي أمر من الحكومة يقضي بأن تسحبوا الجنود من هنا » .

إقترب الجمهور أكثر من الجنود ، فصرخ الضابط :

« قفوا ! أو أطلق النار » .

صرخ الرجل : « هذا أمر . هذا أمر موجّه إليك كي تسحب رجالك بعيداً » .

فقال الضابط : « هذا يعني الموت للأخوين دي ويت ، لكن عليّ أن أطيع . يا رجال ! إلى اليمين ! إلى الأمام » .

وتحرك الجنود بعيداً .

الفصل الرابع

الوداع يا طفلتي !

نهض كورنيليوس دي ويت من سريره يساعده أخوه جون، فتركا الغرفة وهبطا الدرج . عند أسفل الدرج وقفت روزا ، إبنة حارس السجن ، وهي فتاة جميلة في الثامنة عشرة من العمر تقريباً ، وقالت :

« أريد أن أخبركما شيئاً » .

فقال جون دي ويت : « ما هو ، يا طفلتي ؟ » .

قالت روزا : « لا تخرجا إلى الشارع . فالجنود يتحركون بعيداً ، وسيقتلكم الناس إن شاهدوكما » .

فسألها كورنيليوس : « ما العمل ؟ » .

قالت روزا : « أخرجا من الباب الخلفي ، فهو يؤدي إلى زقاق ضيق ، وقد أخبرت سائق عربتكما أن ينتظركما هناك » .

فقال جون : « السؤال هو إن كان والدك غريفوس ، حارس السجن ، سيفتح الباب » .

قالت روزا : « أنا أعلم أنه لن يفتحه ، لكنني أخذت مفتاحه . ها هو » .

قال كورنيليوس: « لا يعني يا عزيزتي أن أشكرك بما تستحقين. ليس عندي ما أعطيك سوى الكتاب الذي تجدينه في غرفتي. أعلمُ أنك لا تستطيعين القراءة، لكن ربما علّمك أحد ذلك. إنه آخر هدية من رجل حاول إنقاذ بلده؛ آمل أن يجلب لك الخير» .

فقالت روزا : « أشكرك سيدي ، سوف أحتفظ به دائماً ـ لكنني لا أقرأ . حبذا لو كنت أعرف القراءة» .

تعالت صيحات الجمهور ، فقالت روزا : « تعالا بسرعة» .

لحقا بها هابطين بضع درجات ، وعبرا فسحة صغيرة . فتحت روزا باباً صغيراً ، فخرجا منه إلى الشارع ، وقالا :

« الوداع ، يا طفلتي »

صرخت روزا : « إذهبا بسرعة ، فالناس يقتحمون

البوابة » .

تحركت العربة بعيداً حتى وصلت أخيراً إلى بوابة المدينة ، فصرخ السائق :

« إفتح ! إفتح البوابة ! » .

قال البواب : « لا أستطيع فتحها ، لقد أُخذ المفتاح مني » .

فصاح جون : « علينا أن نجرّب بوابة أخرى » .

إستدارت العربة ، وجاء بعض الرجال يركضون حول المنعطف ، ولحق بهم آخرون راكضين .

فصرخ جون : « أسرع ! تحرّك بسرعة أكثر ! » .

وقف الرجال عبر الطريق وصرخوا : « قفوا ! »

أكملت العربة طريقها ، وقُذف برجل إلى الأرض فمرّت العربة عليه . وجاء إلى الشارع مزيدٌ من الناس يركضون ، ولم يعد من سبيل أمام العربة ، فصرخ جون : « قف ! علينا مغادرة العربة » .

وصاح الناس : « إنهما هناك ! » .

فضرب رجل أحد الأحصنة على رأسه ، فوقع أرضاً ، فيما

سحب آخرون جون وكورنيليوس من العربة .

صرخ جون دي ويت : « أخي ! أين أخي ؟ » .

كان كورنيليوس طريحاً على الطريق وقد فارق الحياة ، فيما صوّب رجل بندقيته إلى راس جون ، لكن البندقية لم تطلق النار . فرفع الرجل البندقية وضرب بها راس جون فأسقطه إلى الأرض .

بعد ذلك بفترة وجيزة ، كانت جثتا الأخوين تتدليان من شجرة خارج السجن .

لقد أنجز الناس عملهم !

الفصل الخامس

ما القضية ؟

فيما كان سكان هايغ يقتلون كورنيليوس وجون دي ويت ، كان كريك يمتطي جواداً على الطريق المؤدي إلى دورت ، ثم ترك جواده في كوخ وتابع طريقه بمركب في النهر ، وسرعان ما تراءت له دورت عند أسفل تلة . كانت هنالك بيوت حمراء جميلة على ضفة المياه ، فيما إنتصب منزل أكبر من المنازل الأخرى على طرف التلة بقرب بعض الأشجار الباسقة . ذلك كان منزل فان بيرل .

ترجّل كريك من القارب وسار باتجاه المنزل .

كان كورنيليوس فان بيرل في غرفة بذوره ينظر في ثلاث بصيلات بيده ، ويقول لنفسه :

« أظن أنني وجدت الزنبقة السوداء ! سوف أربح المئة ألف غيلدر المعروضة للزنبقة السوداء . سأعطي المال إلى

الفقراء في دورت ، ويعلم زارعو الزنبق جميعاً في العالم بإسمي . ستُدعى الزنبقة « زنبقة فان بيرل » ـ ربما أعطي الفقراء خمسين ألف غيلدر فقط وأستعمل الخمسين ألف الباقية لزراعة أنواع أخرى من الزنبق ـ يالبصيلاتي الجميلة ! » .

رنّ الجرس في تلك اللحظة ، فحضر خادم إلى الباب .

سأل فان بيرل : «من الطارق؟» .

«إنه رجل من هايغ ، إسمه كريك ومعه رسالة إليك » .

قال فان بيرل : « كريك ! ذلك هو خادم جون دي ويت ـ دعه ينتظر بضع دقائق » .

فقال كريك : «لا أستطيع الإنتظار» وهو يدخل إلى الغرفة فجأة حتى أن بصيلتين وقعتا من يد فان بيرل ، الذي تساءل :

«ما القضية؟ كيف تدخل هكذا؟» .

قال كريك : « ما القضية ؟ القضية هي أن عليك أن تقرأ هذه الورقة في الحال » .

فقال فان بيرل: «حسناً عزيزي كريك، سأقرأ ورقتك».

وضع الورقة على الطاولة، ثم إلتقط البصيلتين من الأرض، وقال: «آه! لم يُصبها أذى».

دخل خادم راكضاً وهو يقول: «سيدي! سيدي! إذهب حالاً».

فقال فان بيرل: «ما القضية الآن؟»

صرخ الخادم: «البيت مليء بالجنود».

فسأل فان بيرل: «ماذا يريدون؟».

وصاح الخادم: «إنهم يريدونك! عليك أن تذهب، إذهب الآن، أقفز من النافذة!».

فأجاب كورنيليوس: «لن أقفز من النافذة، فأقع على زنابقي في الحديقة».

نظر حوله علّه يجد ورقة يضع فيها بصيلاته الثلاث، فوجد الرسالة التي أحضرها كريك، ودون أن يفكّر بمحتواها، وضع فيها البصيلات الثلاث وخبّأها في معطفه.

دخل إلى الغرفة ضابط وستة جنود.

قال الضابط: «هل أنت كورنيليوس فان بيرل؟».

قال كورنيليوس: «أنا هو».

«أعطني الرسائل الحكومية التي تحتفظ بها في بيتك».

قال فان بيرل: «رسائل! لست أدري ما الذي تعنيه».

«أعني الرسائل التي تركها معك كورنيليوس دي ويت في كانون الثاني (يناير)».

«آه! لا أستطيع إعطاءك تلك الرسائل. فقد طلب صديقي كورنيليوس دي ويت عدم إعطائها لأحد سواه أو سوى خادمه».

فقال قائد الجند: «آمرك أن تفتح ذلك الصندوق ـ ألن تفعل ذلك؟ إذن سأفتح الصندوق بنفسي!».

فتح الضابط الصندوق، وأخرج الرسائل منه، ونظر إليها، ثم قال:

«حسناً! لقد أُخبرنا أن الرسائل هنا، وها هي هنا!».

فقال فان بيرل: «ماذا تعني؟».

«لا تعمد إلى التظاهر وكأنك لم تكن تدري. عليك

قال الضابط: «هل أنت كورنيليوس فان بيرل؟».

قال كورنيليوس: «أنا هو».

«أعطني الرسائل الحكومية التي تحتفظ بها في بيتك».

قال فان بيرل: «رسائل! لست أدري ما الذي تعنيه».

«أعني الرسائل التي تركها معك كورنيليوس دي ويت في كانون الثاني (يناير)».

«آه! لا أستطيع إعطاءك تلك الرسائل. فقد طلب صديقي كورنيليوس دي ويت عدم إعطائها لأحد سواه أو سوى خادمه».

فقال قائد الجند: «آمرك أن تفتح ذلك الصندوق - ألن تفعل ذلك؟ إذن سأفتح الصندوق بنفسي!».

فتح الضابط الصندوق، وأخرج الرسائل منه، ونظر إليها، ثم قال:

«حسناً! لقد أُخبرنا أن الرسائل هنا، وها هي هنا!».

فقال فان بيرل: «ماذا تعني؟».

«لا تعمد إلى التظاهر وكأنك لم تكن تدري. عليك

المجيء معي، فأنت سجيني».

«ماذا فعلت؟».

قال الضابط: «القاضي هو الذي يخبرك بذلك».

«أين السجن؟».

«في هايغ».

ودّع فان بيرل خدمه، ثم تبع الضابط ودخل العربة.

الفصل السادس

أين البصيلات ؟

كان بوكستل هو الذي أخبر الحكومة بشأن الرسائل في منزل فان بيرل ، إذ بواسطة منظاره شاهد كورنيليوس دي ويت يعطي الرسائل إلى كورنيليوس ، وظن أنها رسائل سرية تتعلق بقضايا حكومية ، فقال :

« سوف أخبر مسؤولي الحكومة بذلك ، فيأتون لاقتياد فان بيرل سجيناً . وحالما يؤخذ بعيداً ، أدخل إلى منزله وأجد بصيلات الزنبقة السوداء فأحصل على المئة ألف غيلدر » .

رأى بوكستل الجنود يقتادون فان بيرل بعيداً .

أقبل المساء ، فأقفل الخدم المنزل ، ثم جاء الليل وسطعت النجوم في السماء ، وأتت من بعيد ضجة المدينة التي لا تعرف الراحة ، ثم تلاشت أصوات المدينة في السكون .

تناول بوكستل مصباحاً وتسلق الحائط بسرعة . خلع إحدى النوافذ ودخل المنزل ، ثم صعد الدرج إلى غرفة البذور . فتش في الصندوق ، وعلى الطاولة - في كل مكان ، فلم يجد أثراً للبصيلات . ففتش من جديد . لقد إختفت البصيلات ، لكن أين إختفت ؟

فقال : « لقد أخذها فان بيرل إلى هايغ ! إذاً هيا إلى هايغ ! - سألحق به إلى هايغ » .

الفصل السابع

في السجن

فيما كان الجمهور يركض في أرجاء السجن بحثاً عن كورنيليوس وجون دي ويت ، إختبأت روزا ووالدها غريفوس في إحدى غرف الطابق السفلي . وحين فشل الجمهور في العثور على الأخوين ، رحل بعيداً . وبعد فترة طويلة ، خرج غريفوس وروزا ، وكان الوقت إذ ذاك منتصف الليل . وما أن خرجا حتى توقفت عربة عند بوابة السجن واقتيد كورنيليوس فان بيرل إلى الداخل .

قال الضابط إلى غريفوس : « إنه صديق للأخوين دي ويت » .

فقال غريفوس : « صديق آل دي ويت ! ها ! ستكون له غرفتهما » .

ضحك غريفوس وهو يقود فان بيرل إلى الغرفة . ذهبت روزا معهما تحمل مصباحاً أنار بضوئه الذهبي وجهها الجميل . نظرت روزا إلى الشاب المسكين وقد بات سجيناً

وشعرت بالأسف لأجله .

وصلوا في النهاية إلى الغرفة ، وقال غريفوس مشيراً إلى شيء خشبي صلب في الزاوية : « هاك سريرك » . أُقفل الباب ، واختفى ضوء مصباح روزا ، ولم يبق سوى الظلام .

إستلقى فان بيرل على السرير وعيناه شاخصتان صوب النافذة الضيقة . رأى سواد أشكال الأشجار وهي منتصبة قبالة السماء وراح يراقبها ساعة تلو أخرى . وما لبث أن برز في السماء ضوء رمادي وأشرقت الشمس .

نهض كورنيليوس من السرير وذهب إلى النافذة . كانت في طرف الفناء شجرة تتدلّى منها جثتان ـ كتب على ورقة تحتهما بأحرف كبيرة :

كورنيليوس وجون دي ويت
عدوّا الشعب

قرأ فان بيرل الورقة ، وأطلق صرخة مدوّية ، ففتح غريفوس الباب وقال : « لماذا تحدث ضجيجاً في الصباح الباكر ؟ كفى ! » .

أشار فان بيرل إلى الجثتين ، فقال غريفوس :

« آه ، تلك ! هذا ما يحدث للّذين يكتبون رسائل لا يحق لهم كتابتها . وربما حصل الشيء نفسه للذين يحفظون مثل هذه الرسائل » .

ثم أغلق غريفوس الباب .

كان فان بيرل قد وقع أرضاً، ثم ما لبث أن انتصب واقفاً . تناول من داخل معطفه البصيلات الثلاث وراح ينظر إليها .

وهكذا تبدد كل عمله ، إذ ليس في السجن تربة ، ولا أشعة شمس . فكيف يزرع زنبقته السوداء ؟

الفصل الثامن

روزا الطيبة

جاء غريفوس في المساء يحمل الطعام إلى فان بيرل . وما أن فتح الباب حتى وقع غريفوس وكسر ذراعه . ولما نهض عن الأرض ، لم يفكر فان بيرل بمحاولة الفرار ، بل تقدم لمساعدة غريفوس .

في تلك اللحظة جاءت روزا تركض صعوداً على الدرج . إذ تعلم أن غريفوس كان يضرب السجناء أحياناً ؛ فظنت أن فان بيرل قد ضرب أباها . أدرك فان بيرل أفكارها ، فأوضح قائلاً :

« لقد وقع وها أنا أحاول مساعدته . لقد كسر ذراعه » .

قالت روزا : « أشكرك ! أشكرك فعلاً ! هل أنت طبيب»؟

قال فان بيرل : « كنتُ طبيباً لسنوات خلَتْ » .

فسأل غريفوس : « لعلك تستطيع جعل ذراعي سليمة » .

فأجاب فان بيرل : « بلى بإمكاني ذلك . أحتاج إلى قطعتين من الخشب وبعض القماش . لقد كسرت العظم » .

قال غريفوس : « ساعديني يا روزا لأنهض عن الأرض » .

ساعدته روزا على النهوض ، فجلس على السرير ، ثم ركضت وأحضرت قطعتين من الخشب وبعض القماش .

أعاد فان بيرل العظام إلى مكانها ، فأطلق غريفوس صيحة من الألم ، ثم إنطبقت عيناه ، ولم يعد يدري شيئاً .

إلتفتت روزا إلى فان بيرل وقالت : « أودّ أن أساعدك ، ستكون محاكمتك غداً وسيأمر القاضي بشنقك مثل الأخوين دي ويت . يمكنك الفرار الآن ، قبل أن يفتح والدي عينيه . إذهب ! إنطلق بسرعة ! »

أجاب فان بيرل : « كلا ، لن أذهب . فلو وجدوا أنني ذهبت ، فسيقولون بأنك أطلقت سبيلي - لم أقترف أي ذنب » .

فقالت روزا : « إهدأ ! لا ينبغي أن يعلم والدي بأننا تحدثنا سوياً » .

سأل فان بيرل : « لماذا ؟ »

فقالت روزا : « لأنه لن يسمح لي بالمجيء الى هنا ثانية »

«هل تأتين وتتحدثين معي مرة أخرى ؟ »

قالت روزا : « نعم » .

أحسّ فان بيرل وكأن نور الشمس قد دخل إلى غرفته .

قال غريفوس وهو يفتح عينيه : « ماذا تقولان ؟ »

أجابت روزا : « كان الطبيب يقول أن عليك البقاء هادئاً » .

فقال غريفوس : « وأنا أقول أن عليك عدم التحدّث إلى السجناء » .

الفصل التاسع

ألا ترى دموعي ؟

استدعي فان بيرل في اليوم التالي للمثول أمام القضاة ، فاستجوبوه ، وقالوا أن أوامرهم ستُنقل إلى السجن لاحقاً ، فأعيد فان بيرل إلى السجن للإنتظار .

وبعد نصف ساعة تقريباً جاء ضابط إلى السجن ، ففتحت روزا باب غرفة فان بيرل ، لأن غريفوس كان مريضاً في السرير .

وقرأ الضابط أوامر القاضي :

« يؤخذ السجين من الزنزانة إلى الساحة حيث يقطع رأسه » .

أصغى فان بيرل إلى الكلمات ، وبدا مندهشاً بدل أن يكون حزيناً .

سأل الضابط : « هل لديك ما تقوله ؟ » .

فقال فان بيرل : « كلا ، لكنني لم أكن أعتقد أبداً أن هذا سيكون السبب في موتي . في أي يوم سيقطع راسي ؟ »

أجاب الضابط مندهشاً لهدوء فان بيرل : « اليوم » .

أما روزا فكانت تبكي ، فيما سأل فان بيرل :

« في أي وقت ؟ »

« الساعة الثانية عشرة »

قال كورنيليوس : « آه ! سمعت الساعة تدق العاشرة منذ وقت طويل . فلم يبق لدي وقت كثير » .

فخرج الضابط .

وإستدارت روزا إلى كورنيليوس والدموع في عينيها ، ثم قالت :

« آه ، سيدي »

قال كورنيليوس : « لا تبكي ، توقفي عن البكاء أخبريني ما القضية ؟ »

قالت روزا : « هل من شيء أستطيع فعله لأجلك ؟ » .

قال كورنيليوس : « بل ـ أعطني يدك ، وعديني بأن لا تضحكي مما سأسأله » .

قالت روزا : « أضحك ! ـ ألا ترى دموعي ؟ »

قال كورنيليوس : « روزا ، لم أرَ في حياتي أحداً أجمل منك ، و ـ لا ينبغي بي أن أقول أكثر لأنني سأغادر هذا العالم قريباً » .

دقت الساعة الحادية عشرة .

وقال كورنيليوس : « ينبغي أن أسرع » ، فتناول البصيلات الثلاث من معطفه ، وكانت ما تزال في الورقة نفسها ، وأضاف قائلاً : « عزيزتي ، لطالما أحببتُ الزهور ، وأعتقد أنني اهتديت إلى كيفية زرع زنبقة سوداء . هناك مئة ألف غيلدر ستكون من نصيب من يستطيع زرع زنبقة سوداء . سأعطيك هذه البصيلات ، وستكون المئة ألف غيلدر هدية لطيفة لك حين تتزوجين . عديني بأن تتزوجي شاباً لطيفاً يحبك ـ بقدر ما أُحب الزهور »

« لكن سيدي ! »

« دعيني أتكلم . ليس لدي إخوة ، ولا أخوات ، ولا أحد في العالم . إن رغبتي الوحيدة هي أنه حين تنمو الزنبقة ،

سمّيها بإسمي وإسمك ـ زنبقة روزا بيرل . أعطني ورقة فأكتب لك ذلك » .

فأعطته روزا كتاباً ، وقالت :

« هذا الكتاب كان لصديقك كورنيليوس دي ويت . أكتب عليه ما شئت . أنا لا أستطيع القراءة ، لكن بإمكاني أن أطلب من أي شخص قراءته لي » .

فكتب كورنيليوس فان بيرل ما يلي :

«في هذا اليوم، الخامس والعشرين من آب (أغسطس)، ١٦٧٢، أعطي روزا غريفوس ثلاث بصيلات ستنتج (على ما أعتقد) زنبقة سوداء في أيار (مايو) المقبل، وقد خصّص زارعو الزهور في هايغ مكافأة من أجل ذلك، قيمتها مئة ألف غيلدر، ورغبتي هي أن يُعطى المال إلى روزا غريفوس عند زواجها من رجل صالح يقاربني بالعمر، يحبها وتحبه. كما أطلب أن يطلق على الزهرة إسم روزا بيرل ـ أي إسمي وإسمها معاً.

أتمنى لها السعادة والعمر المديد.

كورنيليوس فان بيرل»

قرأ فان بيرل ما كتبه ، وسألها :

« هل توافقين ؟ »

فأجابت قائلة : « كلا ، لا ينبغي أن يكون المال لي . فلن أحب أحداً ، ولن أتزوج أبداً » .

سُمعت خطوة على الدرج .

قالت : « أفعل جميع ما تطلبه مني سوى الزواج . سآخذ البصيلات » ، ثم وضعتها بقرب قلبها .

دخل الضابط الغرفة ، وتبعه الجنود . وكانت روزا قد وقعت أرضاً ، وانسدل شعرها الذهبي فوق وجهها وغطّى عينيها المغلقتين ، لكن يدها ظلت تضغط إلى قلبها وهي تمسك بالبصيلات ، وبين أصابعها كانت الورقة التي وضعت فيها البصيلات . في تلك الورقة كانت رسالة كورنيليوس دي ويت . ولو تسنى لـ فان بيرل أن يقرأ تلك الرسالة لكانت أنقذت حياته ، وأنقذت زنابقه .

الفصل العاشر

في اللحظة الأخيرة

كانت ساحة السجن مكتظّة بالناس . في وسطها مكان مرتفع عليه قطعة خشب يضع السجين رأسه عليها ، وبالقرب من قطعة الخشب وقف رجل في يده فأس .

تزاحم الناس أكثر فأكثر ، وشقّ رجلٌ طريقه بقوة عبر الجموع . ذلك الرجل كان بوكستل .

ظن بوكستل أن كورنيليوس فان بيرل لا بد أنه يحمل البصيلات معه وهو في طريقه إلى الموت . فتوجّه بوكستل إلى حامل الفأس وقال :

« إنني صديق لـ فان بيرل وأرغب في أخذ جثته بعد موته . أدفع لك مئة غيلدر إن سمحت لي بذلك » .

فقال حامل الفأس : « حسناً ، يمكنك أخذ الجثة ، لكن ينبغي أن تدفع لي المال أولاً » .

فدفع بوكستل المال ووقف قريباً من المكان الذي سيُقطع فيه رأس فان بيرل.

إنتظر الناس، وكذلك إنتظر بوكستل.

بدا وكأن موجة غمرت جموع الناس كمثل عاصفة تجتاح حقلاً من الذرة. واستدار كل رأس حين خرج فان بيرل من السجن.

شقَّ الجنود طريقاً له بين الناس، وكانت هناك تنهيدة عميقة حين صعد فان بيرل الدرجات وتحرك حامل الفأس لملاقاته.

غير أن كورنيليوس لم يكن يفكر بالناس، أو بالفأس وموته. كان جلّ تفكيره بالزنابق الجميلة التي سوف تنمو من بصيلاته الثلاث ـ زنابق ثلاث جميلة.

وصل إلى أعلى الدرجات. ركع وصلّى، فيما فكّر بوكستل: «هيا! فسرعان ما ستهوي الفأس، وأحصل على الزنابق».

خفض كورنيليوس رأسه، ورفع الرجل فأسه.

وفكّر بوكستل: «آه! واحد ـ إثنان ـ ثلاثة».

أنزل الرجل فأسه ببطء ولامس به رقبة كورنيليوس الذي ما فتىء يفكر بالزنابق ، وبشعر روزا الذهبي .

رفع الرجل فأسه ثانية ، وقال بوكستل :

« الآن ، هذه المرة ـــ »

نزلت الفأس ببطء ، إذ لا بدّ من التأكد من إصابة الرقبة في المكان الصحيح .

فكّر فان بيرل : « زنابق سوداء جميلة ، وشعر ذهبي مسدلٌ فوق عينيها المغلقتين » .

ورُفعت الفأس من جديد ، وفكّر بوكستل : « الآن ، هذه هي المرة الثالثة التي ستهوي فيها الفأس » ، وفكّر كورنيليوس : « إنها النهاية ، آمل أن تزرع روزا الزنابق بالطريقة الصحيحة » .

شعر كورنيليوس بطرف الفأس يلامس رقبته . لكن ـ ماذا حصل ؟ إذ بقي يرى الأشجار والسماء الزرقاء ، وظل يسمع صدى أصوات الناس الكثيرة ـ كما النحل في الصيف .

ثم شعر فجأة بيدٍ لطيفة ترفعه ، فوجد شخصاً يقف بجانبه يمسك بورقة كبيرة . فوقف الناس صامتين فيما قرأ الضابط الورقة ، وهي أمر من أمير الأورانج ، حاكم هولندا ، يقضي بأن لا يُعدم كورنيليوس ، بل يبقى في السجن مدى الحياة .

قال كورنيليوس : « حسناً ، ستبقى روزا وبصيلات الزنبقة السوداء الثلاث » .

لكن كورنيليوس نسي أن هناك سبعة سجون في هولندا ، وأن أمر الحكومة يقضي بوضعه في السجن الموجود في لوفستين ، بالقرب من دورت ، وروزا لن تكون في لوفستين .

دخلت عربة إلى ساحة السجن ، فصعد فان بيرل إليها ، ورحلت بعيداً .

كان ثمة رجل يراقب العربة بغضب شديد .

ذلك الرجل كان بوكستل .

الفصل الحادي عشر

الزيارة المفاجئة

فيما قبع كورنيليوس بزنزانته في لوفستين لم يفكر إلا بشيئين فقط ـ الزهرة وروزا؛ وبدا له أنه فقدهما إلى الأبد، لكنه كان مخطئاً.

وذات صباح جلس إلى نافذته يتنشق الهواء النقي الآتي من النهر، موجهاً نظره بإتجاه مدينته العزيزة دورت. وفيما هو هكذا، رأى حمامات مقبلة من المدينة تجثم فوق سقف السجن.

فكر فان بيرل: وهذه الحمامات آتية من دورت، إذن ستعود إلى دورت. فإذا ربطت قصاصة من الورق إلى ساق إحدى الحمامات، لاستطعت توجيه رسالة إلى دورت ـ لكن ينبغي أن أحصل على رسالة من دورت أيضاً. كيف يمكن فعل ذلك؟ لا بدّ لي من حمامتين وبعض البيض، فتطير الحمامتان إلى دورت وتعودان إلى هنا حيث مأواهما».

فراح يضع الطعام على النافذة كل يوم ، حتى التقط أخيراً حمامتين . وبعد بضعة أسابيع وضعت الحمامة البيض .

وحالما توفر البيض ، ربط قصاصتين إلى ساق الحمامة الأم ، فطارت هذه بعيداً وعادت في المساء ، والقصاصتان ما تزالان مربوطتين إلى ساقها . وظل الحال هكذا لمدة خمسة عشر يوماً وهي تطير بعيدا إلى دورت وتعود منها والقصاصتان مربوطتين إلى ساقها . وفي اليوم السادس عشر عادت من دون القصاصتين .

كانت القصاصة الأولى مكتوبة إلى الخادمة العجوز في بيته ، ومعها القصاصة الثانية إلى روزا . كانت الخادمة العجوز ما تزال تعتني بتربية الحمام في بيت فان بيرل ، فشاهدت حمامة غريبة بين الحمامات ، ثم رأت القصاصتين ، وبعدها وجدت روزا وأعطتها الرسالة .

وحدث في إحدى أمسيات شباط (فبراير) أن سمع كورنيليوس على الدرج صوتاً طالما أحبه كثيراً . ذلك كان صوت روزا .

ضغطت روزا وجهها على قضبان فتحة صغيرة في الباب ، وقالت :

« آه ، سيدي ، سيدي ، ها أنا »

رفع كورنيليوس يديه وصاح :

« روزا ! »

« إهدأ ! لا تتكلم بصوت عالٍ . أبي قريب . إنه في الساحة يأخذ أوامره من رئيس السجن » .

« أوامره ؟ » .

« نعم ، فعندما إستلمت رسالتك ذهبت إلى أمير الأورانج ، حاكم بلدنا ، وطلبت نقل والدي إلى هذا السجن للعمل فيه . لم يعرف الأمير ، بالطبع ، سبب طلبي هذا ، لكنه وافق عليه . وهكذا تجدني هنا »

«وأستطيع أن أراكِ كل يوم؟»

« ربما »

« هل تحبينني قليلاً يا عزيزتي روزا ؟ »

« ها قد جاء أبي »

وكان غريفوس قد بلغ أعلى الدرج .

الفصل الثاني عشر

التاسعة هذا المساء !

قال غريفوس عند دخوله غرفة فان بيرل : « حسناً ، إنني مندهش فعلاً لرؤيتك . فلم أكن أتوقع لقاءك من جديد » .

أجابه كورنيليوس : « أما أنا فيسعدني رؤية ذراعك قد تحسنت » .

« إنني حارس سجنك الجديد ، ولن أعاملك بلطف ، فأنا لا أؤمن بمعاملة السجناء بلطف ، إذ لديهم كل أنواع الحيل » ، ذهب غريفوس إلى النافذة ، « حسناً ، يمكنك مشاهدة الكثير من هنا ؛ إنها نافذة جميلة » ، خافت الحمامتان من غريفوس فطارتا بعيداً ، « أوه ! ما هذه ؟ » .

أجاب كورنيليوس : « حمامتيّ »

« حمام ؟ لا أسمح بالحمام ! غداً تذبحان وتطبخان » . مدّ غريفوس رأسه من النافذة لينظر إلى عش الحمامتين

وفيما هو يفعل ذلك ، لمست روزا يد كورنيليوس وقالت له : « التاسعة هذا المساء » .

قال غريفوس وهو يذهب بإتجاه الباب: « أجل ، غداً تذبحان » وخرج ، تتبعه روزا ، وأقفل الباب .

كانت الساعة تدق التاسعة حين جاءت روزا إلى الباب ، وقالت :

« ها أنا . إن أبي ينام بعد عشائه كل يوم ، لذا يمكنني الحضور في مثل هذا الوقت كل يوم » .

« أشكرك فعلاً ، عزيزتي روزا »

فقالت : « لقد أحضرت بصيلاتك معي . لم أستطع قراءة رسالتك ، لكنني علمت أنك أردت بصيلاتك »

قال كورنيليوس : « وأنا أردتك ، يا روزا »

أجابته روزا : « وبصيلاتك » . وأدخلت البصيلات عبر فتحة الباب ، لكن كورنيليوس أعادها إليها ، قائلاً :

« ليس من باب السلامة إبقاء البصيلات الثلاث سوياً . بل ينبغي أن نكون في غاية الحذر . سنزرع كل بصيلة

على حدة . هل توجد حديقة في هذا السجن ؟ »

فقالت روزا : « أجل هناك حديقة جميلة للغاية » .

« أحضري لي بعض التراب من الحديقة لأرى إن كان صالحاً . فتزرعين إذ ذاك بصيلة في الحديقة ، وأزرع أنا واحدة بوعاء في هذه الغرفة ، وتحتفظين أنت بالبصيلة الثالثة ، فيبقى لنا بذلك بصيلة إذا ما حصل شيء للإثنين الآخرين . بهذه الطريقة نتأكد من الحصول على المئة ألف غيلدر لزواجك . لكن هناك أخطار كثيرة » .

فسألته روزا : « أي أخطار ؟ » .

قال كورنيليوس : « الفئران هي الخطر الأول ، فهي تأكل البصيلات . والقطط هي الخطر الثاني ، فالكثير من أزهاري في دورت حطمتها القطط . أما الخطر الثالث والأدهى فهو الإنسان . يُودع الناس في السجن لسرقة غيلدر واحد ، فما بالك بالذي يفعله الإنسان للحصول على مئة ألف غيلدر ؟ »

فقالت روزا : « نافذة غرفتي تطل على الحديقة . سأراقب النبتة بحذر شديد وأحرسها من جميع الأخطار . إن أحداً لن يدخل إلى حديقة السجن » .

« شكراً ، عزيزتي روزا » .

وهكذا أخذت روزا إثنتين من البصيلات وبقيت واحدة مع كورنيليوس .

الفصل الثالث عشر

درس في القراءة

جلبت روزا بعض التراب من الحديقة إلى كورنيليوس ، فوضعه كورنيليوس بوعاء في زنزانته ، وقام في مطلع نيسان (أبريل) بزرع أولى بصيلاته .

كانت روزا تأتي كل مساء لرؤية كورنيليوس، فيتحدثان عن الزنابق ـ وعن أشياء أخرى كذلك.

جهزت روزا مكاناً للبصيلة الثانية في الحديقة ـ هو موضع من التراب بعيداً عن الأشجار والجدران؛ وأخبرت كورنيليوس بما قامت به، فقال:

«حسناً فعلتِ يا روزا! لا شك ستربحين المئة ألف غيلدر. لكنني أخشى شيئاً واحداً».

سألت روزا: «ما هو؟».

«أخاف أن يُنقل أبوك بعيداً عن هذا السجن . فإذا

حصل ذلك ، كيف أكتب إليك ؟ »

« تستطيع الكتابة يا كورنيليوس ، لكنني لا أستطيع قراءة رسائلك . عليك تعليمي القراءة والكتابة ، فلا تنفصل إذ ذاك أبداً »

سأل كورنيليوس : « متى نبدأ ؟ »

قالت روزا : « الآن »

« الآن ؟ لكن ليس لدينا كتاب للقراءة »

« بلى ، لدينا كتاب أعطاه لي كورنيليوس دي ويت . سأحضره غداً مساءً ، وتبدأ بتعليمي » .

مساء اليوم التالي ، أحضرت روزا الكتاب ، وكان عليهما التحدث عبر القضبان في فتحة الباب . رفعت روزا الكتاب إلى الفتحة ، وحملت المصباح بيدها الأخرى ، ثم أحضر كورنيليوس قطعة من الخشب وثبّت الكتاب إلى الفتحة ، وهكذا أصبحت يد روزا طليقة . راح يشير إلى الكلمات واحدة واحدة ، وراحت روزا تقرأ . أضاء نور المصباح شعرها الذهبي وإصبعها الأبيض الصغير وهو يتبع الكلمات والسطور . وتعلمت روزا بسرعة .

الفصل الرابع عشر

السيد جاكوب

جاءت روزا متأخرة نصف ساعة عن موعدها ، فقالت : « لا تغضب عليّ ، فقد جاء صديق قديم لوالدي يريد رؤية السجن . إنه يُضحك والدي ويعطيه المال » .

فسألها كورنيليوس : « أهذا كل ما تعرفينه عنه ؟ هل أنت متأكدة أنه لم يُرسل إلى السجن من قبل الحكومة للتجسّس على السجناء ـ وحراس السجن ؟ » .

أجابته روزا : «أوه ، كلا ، لا أعتقد ذلك . على من سيتجسّس ؟ على والدي ؟ » .

فقال كورنيليوس : « لعله أرسل لمراقبتي ، أو ربما يريد أن يُصبح زوجاً لك » .

قالت روزا : « أتى هذا الرجل إلى السجن في هايغ ،

بنفس الوقت الذي كنت فيه هناك ، ولما جئتُ إلى هنا ، جاء هو كذلك . . قال في هايغ أنه يود رؤيتك ، لكنني سمعته البارحة يقول لوالدي بأنه لا يعرفك . أمتأكد أنت أنه ليس صديقك ؟ »

فقال كورنيليوس : « كلا . ليس لي أصدقاء . ليس هناك سوى الخادمة العجوز في منزلي »

« كنت أعمل مساء البارحة في الحديقة أحضّر التراب لبصيلتك ورأيت ظلاً يتحرك بين الأشجار . لقد كان الرجل يراقبني »

« آه ! إنه يحبك . هل هو شاب ؟ هل هو جميل المنظر ؟ »

صرخت روزا : « كلا ! إنه قبيح للغاية وفي نحو الخمسين من العمر »

« ما إسمه ؟ »

« جاكوب غيسلز »

فقال كورنيليوس : « إنني لا أعرفه »

سألت روزا : « هل تنمو زنبقتك جيداً ؟ »

وأجاب كورنيليوس : « نعم . شاهدت هذا الصباح أولى أوراقها تنمو فوق التراب . لدي آمال عظيمة »

« متى أزرع بصيلتي ؟ »

« ليس بعد . سوف أخبرك . لكن لا تخبري أحداً عنها . إنه سر . هل ما تزال لديك البصيلة الثالثة ؟ »

« نعم . إنها ما تزال في نفس الورقة التي أعطيتها لي . لقد خبأتها بين ثيابي . عليّ أن أذهب الآن ، أظن أنني سمعت شيئاً يتحرك على الدرج ـ لكن ليست تلك خطوة أبي »

ركضت روزا بسرعة نحو الدرج ، لكن أحداً لم يكن هناك .

في الأيام الثلاثة التالية كان غريفوس يأتي إلى غرفة كورنيليوس في أوقات غير متوقعة . ويبدو كأنه يحاول إكتشاف سر ما . وضع كورنيليوس زنبقته خارج النافذة حيث يصعب رؤيتها .

لم يجد غريفوس أي شيء . وفي اليوم الثامن فتح غريفوس الباب فجأة ، فيما كان كورنيليوس ينظر إلى بصيلته ، وركض إلى الأمام وأمسك بالإناء ، قائلاً : « ماذا

لـديك هنـا ؟ آه ! لقد أمسكتـك . إناء يحـوي ترابـاً بداخله ! » ، وغرس غريفوس أصابعه في التراب .

فصـرخ كورنيليـوس : « إنتبه ! » ، وأخـذ الإنـاء من غريفوس .

« آه ! أنت تقـاتلني ، أليس كـذلـك ؟ هـل أنـادي **الجنود ؟ »** فأمسك بالإنـاء ثانيـة ، وإنتزع البصيلة ورماهـا على الأرض ، ثم داس بقدمه على البصيلة .

أطلق كورنيليوس صرخة غاضبة ، وإنتزع الإناء ، وكـاد يهمّ بـرميه على رأس غـريفوس حين سمـع صوت روزا وهي تصرخ :

« أبي ! أبي ! »

فـأجابهـا قـائـلاً : « مـاذا تفعلين هنـا ؟ ليس هـذا من شأنك» .

وراح كورنيليوس يصيـح : « آه ، زنبقتي ! زنبقتي ! » وهو يلملم القطع المكسورة عن الأرض .

فقالت له روزا بصوت منخفض كيلا يسمعهـا غريفـوس : « سأزرع غداً البصيلة الأخرى » .

كان هناك شخص يصعد الدرج ، فقالت روزا لوالدها : « إنه السيد جاكوب . إنه يريدك » .

صرخ غريفوس قائلاً : « إنني قادم ، إذهبي أنتِ أولاً ، روزا ، هيا إذهبي ! »

أغلق باب الغرفة الثقيل ، وتناثرت آمال كورنيليوس على الأرض الحجرية .

الفصل الخامس عشر

كورنيليوس يضع خطّة

عادت روزا في المساء وقالت : « يقول والدي أنه يسمح لك بزرع الزنابق إذا كانت تلك مشيئتك »

فسأل كورنيليوس : « ما الذي جعله يقول ذلك ؟ »

« كان صديقه جاكوب غاضباً جداً حين أخبره والدي عن الزنبقة . كان السيد جاكوب فعلاً في غاية الغضب ! كانت عيناه حمراوين وظننت أنه سيضرب والدي - إذ راح يصرخ : أنت فعلت ذلك ! لقد سحقت البصيلة . رميتها على الأرض ووضعت قدمك عليها ! ذلك أمر رهيب!» - فوجئ والدي وقال له : «هل جننت؟» ، فصاح السيد جاكوب ثانية : «حطمت البصيلة ! وضعت قدمك عليها !»، والتفت صوبي وسأل : «هل كانت تلك البصيلة الوحيدة لديه ؟ هل لديه بصيلة أخرى ؟ » .

لم أجب .

فقال والدي: « تستطيع بـ غيلدر واحد شراء مئة بصيلة من المدينة » . فقلت : « لعـل البصيلات الأخـرى ليست ثمينة كتلك .

فقال جاكوب « لهذا ، عزيزتي روزا ، تعتقـدين أن البصيلة كانت ثمينة » .

لاحظت إذ ذاك أنني اقترفت خطأ .

فأجبت قائلة : « لست أدري . لا أعرف شيئاً عن الزنبق . لا أعـرف سوى أن السجناء يحبون أي شيء يعينهم على تمضية الوقت . لهذا ، فكل شيء من هذا القبيل يكون ثميناً لهم . كان السيد فان بيرل في غاية السعادة بالبصيلة ، وأعتقد أن من القسوة حرمانه من الشيء الوحيد الذي كان يحمل السعادة إلى قلبه » .

قال والدي : « بل علينا، قبل كل شيء ، أن نعرف كيف حصل على تلك البصيلة . من أين أحضرها ؟ » .

ادرت عينيّ بعيداً كيلا يراهما والدي ، لكنهما إلتقتا بعيني جاكوب الذي كان يحاول قراءة أفكاري . وقفت وإتجهت صوب الباب ، فقال جاكوب :

« ليس من الصعب إكتشاف ذلك » .

فسأل والدي : « وكيف ذلك ؟ »

« ربما لديه ثلاث بصيلات . فزارعو الزنبق تكون بحوزتهم ثلاث بصيلات أحياناً . أنظر في ثيابه ، لعله يحمل البصيلتين الأخريين معه » .

قال كورنيليوس : « هل قال أن لديّ ثلاث بصيلات ؟ هل قال ذلك ؟ »

فأجابته روزا : « نعم ، وقد فوجئت كذلك» . وقد قال جاكوب : « خذه إلى غرفة أخرى وأنظر في ثيابه ، .وسأبحث أنا في غرفته فيما هو بالخارج »

قال كورنيليوس : « آه ! إن السيد جاكوب هذا لص ! فهو يريد سرقة بصيلاتي »

قالت روزا : « وهذا ما أعتقده كذلك »

قال كورنيليوس : « ذكرتِ أن رجلاً تبعك حين كنت تحضرين التراب للبصيلة في حديقتك . أليس كذلك ؟ »

فقالت روزا : « أجل »

سأل كورنيليوس : « وهل شاهدتيه يتحرك بين الأشجار ؟ »

قالت روزا : « نعم » .

ـ « فرأى كل ما كنت تفعلينه ؟ »

قالت روزا : « نعم »

ـ « إنه لم يكن يتبعك أنت »

فسألته روزا : « من كان يتبع إذن ؟ »

أجابها كورنيليوس : « كان يتبع بصيلتي ! زنبقتي ! »

قالت روزا : « بلى ، بالفعل »

قال كورنيليوس : « هل لك التأكد إن كنت على صواب ؟ فذلك في غاية السهولة »

ـ « أخبرني كيف »

ـ « إذهبي إلى الحديقة غداً ، وتأكدي أن يكون جاكوب على علم بأين أنت ذاهبة ، لكي يلحق بك . تظاهري بوضع البصيلة في الأرض ، ثم غادري الحديقة ، وراقبيه من ثقب في الباب »

قالت روزا : « وماذا بعد ذلك ؟ »

ـ « بعد ذلك نرى ماذا سيفعل »

فقالت روزا بحزن : « فعلاً إنك تحب بصيلاتك كثيراً »

أجـابها كـورنيليوس : « أجـل ، لقد شعـرت وكأن والـدك حـطم فؤادي حين داس بقـدمـه على البصيلة . هـذه البصيلة الثانية ، التي ستزرعينها في حديقتك ، إعتني بهـا كما تعتني الأم بطفلها ، وكما يعتني الجندي بقائده الجريح » .

قالت روزا : « سوف أنفّذ الأمر كما تشاء »

وأضاف كورنيليوس : « أما إذا اعتقـد جـاكـوب أو والدك بـأن البصيلة تخصّني ، فلا تـأتي لرؤيتي أبـداً . إنقطعي عن رؤيتي ، رغم أنه ليس لي سواك في هذا العالم »

قالت روزا : « آه ! إنني أرى شيئاً واحداً »

ـ « ماذا ترين ؟ »

ـ « أرى أنـك تحب زنابقـك إلى حـد أنـه ليس هـنـاك من متسع في قلبك لأي حب آخر »

وركضت بعيداً .

لم ينم كـورنيليوس لعـدة سـاعـات في تلك الليلة ، إذ أن زارع الـزنبق العظيم هـذا كان يـأسف لفقـدان روزا أكثـر من فقدانه لزنبقته .

ولمـا جـاءه الحلم ، لم يكن بشـأن زنـابقـه ، بـل بشـأن روزا .

الفصل السادس عشر

الأيام الموحشة

كانت روزا غاضبة . فاستلقت على السرير ، لكنها لم تستطع النوم . وفيما كانت يقظة وهي مستلقية ، قررت عدم الذهاب لرؤية كورنيليوس بعد اليوم ، كما قررت متابعة دروسها لوحدها .

لذا ، حين طلع الفجر ، جلست لتقرأ كتابها ، ثم عمدت إلى بعض الكتابة ، إذ كانت تأمل بعد ثمانية أيام أن تستطيع كتابة رسالة إلى كورنيليوس بشأن زنبقته .

ولما جاء الصباح إستيقظ كورنيليوس وتساءل إن كانت ستأتي روزا لرؤيته في المساء . لماذا أخبرها بأنه يحب زنبقته كثيراً ؟ لماذا طلب إليها عدم المجيء لرؤيته إذا بدا لها أن جاكوب أو والدها يراقبانها ؟ لماذا جعلها تظن أنه يحب زنبقته أكثر منها ؟

جاء المساء ، وإنتظر كورنيليوس . دقت الساعة السابعة ، فالثامنة ، فالتاسعة ، ثم ساد صمت ووضع كورنيليوس يده على قلبه وأطرق ينصت مترقباً خطوات روزا .

دقت الساعة العاشرة ، فقال :

« إنها لن تأتي لتراني مرة أخرى » .

ولما دقت الساعة الحادية عشرة ، إضطجع كورنيليوس على سريره دون أن ينزع عنه ثيابه .

ثم دقت الساعة الثانية عشرة ، وكانت ليلة كورنيليوس طويلة وحزينة .

مضى اليوم ، وكان يوماً طويلاً وحزيناً لـ كورنيليوس .

ومضى اليوم الثاني ، وهو موعد الأسبوع من نيسان (أبريل) الذي يزرع فيه عمال البساتين زنابقهم .

وسبق لـ كورنيليوس أن قال لـ روزا : « سأخبرك باليوم الذي تضعين فيه البصيلة في التربة »

كان الطقس ملائماً ، والهواء دافئاً ، فهل ستدع روزا اليوم المناسب يذهب ؟ وهل سيرى روزا وزنبقته ؟

مضى اليوم الثالث ، ولم يستطع كورنيليوس الأكل أو النوم . أطل برأسه من النافذة علّه يرى روزا في الحديقة ـ روزا وزنبقته .

ومضى اليوم الرابع ، وجاء غريفوس بطعام السجين وعاد به دون أن يؤكل .

فقال غريفوس : « يبدو أننا سنخسر قريباً زارع الزنبق . فيخرج من السجن في صندوق ويودّع السجن ميتاً » .

ولما نهض كورنيليوس من سريره ، في صباح اليوم السابع ، وقع نظره على ورقة دسّت من تحت الباب :

« إنها على ما يرام . زنبقتك تنمو جيداً » .

فكتب كورنيليوس جواباً :

« لست مريضاً بسبب الزنبقة ، بل لأنك لا تأتين لرؤيتي » .

أحضر غريفوس وجبة المساء ، ثم عاد فأخذها . إذ ذاك وضع كورنيليوس الجواب تحت الباب .

أطرق يصغي ، فلم يسمع وقع خطاها ، بل جاء صوت روزا عبر الظلمة يهمس برفق :

« غداً » .

الفصل السابع عشر

اللص الخطير

دقت الساعة الثامنة ، وسمع كورنيليوس صوتاً عند الباب ، فرأى روزا تقف هناك تحمل المصباح في يدها .

لاحظت حزنه العميق وشحوب وجهه ، فقالت :

« هل أنت مريض يا كورنيليوس ؟ »

قال : « نعم » ، إذ كان عليل الفكر والبدن .

وقالت روزا : « لاحظت أنك لم تكن تأكل ، وقال والدي أنك كنت تبقى في السرير طوال النهار . فكتبت لك رسالة أهدىء بها مخاوفك بشأن الذي تحبه أكثر من غيره في العالم »

فقال كورنيليوس : « وأنا أجبت على رسالتك . وحيث أنك أتيت ، فأعتقد أنك تسلمت رسالتي . لا يمكنك القول أنك لم تستطيعي قراءتها ، فقد تعلمت القراءة بسرعة

مدهشة ، ـ والكتابة كذلك » .

قالت روزا : « إستلمت رسالتك وقرأتها ، وقد جئت لأرى ما باستطاعتي فعله لأعيد لك صحتك »

ـ « تستطيعين إعادة صحتي إليّ بإعطائي الأخبار الجيدة . هل لديك أخبار جيدة لي ؟ »

نظر كورنيليوس إلى روزا وهو يقول ذلك ، وفي عينيه بريق من الأمل .

فقالت روزا ببرودة : « ليس لديّ ما أخبرك عنه سوى زنبقتك ، لعلمي بأنها هي الشيء الذي تهتم به »

قال كورنيليوس : « آه منك ! لقد أخبرتك يا روزا بأنني لا أفكر إلاّ بك . الزنبقة لا تهمّني » .
إبتسمت وقالت :
« آه ! لكن زنبقتك كانت في خطر شديد » .

فأبدى كورنيليوس خوفه ، وصاح : « خطر ! أي خطر ؟ » فقالت : « نعم ، كانت في خطر شديد . كنت على حق ، فـ جاكوب لم يأتِ إلى هنا من أجلي ، بل للحصول على زنبقتك »

صرخ كورنيليوس : « إذن جاء من أجل ذلك ؟ »

قالت روزا : « أنت تهتم بزنبقتك أكثر من إهتمامك بي »

ـ « أوه ، كلا ! كلا ! أنتِ تملكين العقل والمقدرة للدفاع عن نفسك ؛ لكن زنبقتي لا تستطيع فعل شيء ضد أعدائها »

قالت روزا : « حين كُنتَ خائفاً من جاكوب ، كُنتُ أنا خائفة مثلك ، لذلك قمت بما طلبت مني أن أفعله »

ـ « أخبريني ما حصل »

قالت روزا : « نزلت إلى الحديقة ، وذهبت إلى حيث كنت سأزرع الزنبقة . وبقيت أتطلّع حولي طيلة الوقت لأرى إن كنت ملاحقة . . . »

سأل كورنيليوس : « ماذا حصل بعد ذلك ؟ »

ـ « ثم رأيت ظلاً يتحرك بين البوابة والحائط ؛ وبعدها توارى خلف الأشجار »

سأل كورنيليوس : « هل تظاهرت بعدم رؤية الرجل ؟ » .

ـ « أجل ، حفرت حفرة في الأرض وكأنني سأضع فيها البصيلة »

سأل كورنيليوس : « ماذا كان يفعل الرجل ؟ »

- « رأيت عينيه تشعّان بين الأشجار »

فصاح كورنيليوس : « آه ! إنه كما قلت »

قالت روزا : « حفرت حفرة وغطيتها ثانية ، دون أن أضع فيها البصيلة ، ثم خرجت من الحديقة وكأنني أنجزت عملي »

قال كورنيليوس : « ثم نظرت عبر فتحةٍ في الباب ؟ فماذا شاهدت ؟ »

- « إنتظر الرجل بعض الوقت ، ربما ظنّاً منه أنني قد أعود ، ثم خرج من مخبئه ، وتوجّه إلى المكان الذي كنت فيه . توقف وراح يتطلّع حوله . فنظر إلى كل نافذة من نوافذ المنزل ، ثم وضع يديه الإثنتين في التراب . رفع التراب وراح يتلمّسه بحثاً عن البصيلة . كرّر ذلك أكثر من مرة ، ثم أدرك أنه وقع فريسة الخدعة . فغطّى المكان بحذر ، وذهب ببطء نحو بوابة الحديقة وكأنما جاء لمشاهدة الأزهار فقط »

صرخ كورنيليوس : « آه ! ذلك اللص ! ظننت أن الأمر

كـذلك . لكن البصيلة يـا روزا ؟ ماذا فعلت بهـا ؟ فقد تـأخر الوقت كثيراً على زراعتها » .

فقالت روزا : « البصيلة في التراب منذ ستة أيام » .

صـاح كورنيليـوس قـائـلاً : « أين ؟ كيف ؟ في أي تـربـة هي ؟ هل تأتيها أشعة شمس كافية ؟ هـل هي في مأمن بحيث لا يتمكن جاكوب من سرقتها ؟ » .

قـالت روزا : « لا خطر من سرقتهـا إلا إذا حطّم جـاكـوب باب غرفتي ، فالبصيلة في إناء بغرفتي » .

سـأل كورنيليوس : « آه ! إنها في غـرفتك ؟ في أي تـراب هي ؟ » .

- « إنهـا في إناء حجـري يشبه كثيـراً إنـاء الـزهـور الـذي زرعت فيـه زنبقتك ؛ والـتراب هـو نفسـه الـذي أخبرتـني أن أستعمله » .

ســأل كـورنيليـوس : « هـل تحصـــل على أشعـة شمس كافية ؟ » .

قـالت روزا : إنني أضعهـا في النـافـذة الشـرقيـة خــلال الصبـاح لتحصل على شمس الصبـاح ، وأضعها في النـافـذة

الجنوبية بعد الظهر لتحصل على شمس العصر »

فصاح كورنيليوس : « هذا صحيح ! هذا صحيح ! إنك بستانيّة ممتازة يا عزيزتي روزا . هل تقصدين أن الزنبقة موجودة في التراب منذ ستة أيام ؟ »

قالت روزا : « نعم ، منذ ستة أيام »

ـ « أولم تظهر فيها أية أوراق بعد ؟ »

قالت روزا : « كلا ، لكنني أعتقد أن بعض الأوراق ستبرز في الغد » .

قال كورنيليوس : « إذن ستحملين إليّ غداً بعض الأخبار عنها ؟ »

أجابت روزا : « أوه ، لديّ أشياء كثيرة أقوم بها »

ـ « أنت غاضبة لأنني أحب الأزهار ! »

قالت روزا : «كلا، لست غاضبة لأنك تحب الأزهار ، لكنني حزينة لأنك تحب الأزهار أكثر مما تحبني »

ـ « أنا لا أحب سواك »

قالت روزا : « أجل ـ بعد الزنبقة السوداء . حين كتبت

في كتاب كورنيليوس دي ويت ، أمرتني بالزواج من شاب لطيف يقارب عمره بين السادسة والعشرين والثامنة والعشرين . خلال النهار أنشغل بالعناية بزنبقتك ، فلا بدّ أن تترك لي بقية النهار لأبحث عن ذلك الشاب اللطيف »

فسأل كورنيليوس : « ألن تأتي لرؤيتي غداً ؟

ـ « سآتي لرؤيتك إذا ـــ »

ـ « إذا ماذا ؟ »

قالت روزا : « إذا لم تأتِ على ذكر شيء عن الزنبقة السوداء » .

الفصل الثامن عشر

الحارس اليقظ

حين إستيقظ كورنيليوس ، كانت أشعة الشمس تتسرب عبر قضبان الحديد ، والحمام يطير حول النافذة . لقد بدا السجن في الأيام الأخيرة ثقيل الظلّ مظلماً كئيباً ، وبدت القضبان وكأنها تحجب نور النهار ، لكنه أصبح الآن مكاناً بهيجاً ملؤه الضوء والفرح .

ولما أتى غريفوس لرؤية السجين لم يجده كئيباً كما في السابق ، ولم يكن مستلقياً على سريره ، بل كان واقفاً إلى النافذة يغني .

فقال غريفوس : « حسناً ! »

فسأل كورنيليوس : « كيف حالك هذا الصباح ؟ »

لم يجب غريفوس .

ـ « وكيف حال السيد جاكوب ؟ وكيف حال روزا ؟ »

قال غريفوس : « هاك طعامك »

قال كورنيليوس : « شكراً لك ، فأنا جائع »

فقال غريفوس : « هل أنت جائع ؟ لذا فمشاريعك للهرب تسير على ما يرام ؟ سأراقبك ، وسأكون يقظاً » .

قال كورنيليوس : « راقب قدر ما تحب ، عزيزي غريفوس . إن خططي لا تؤذيك »

أجاب غريفوس : « سنرى عند الساعة الثانية عشرة . سأكتشف خططك عند الساعة الثانية عشرة »

إنتظر كورنيليوس طوال الصباح ليرى ما سيحدث .

وأخيراً ، دقت الساعة الثانية عشرة ، وجاء غريفوس برفقة أربعة جنود ، وفُتح الباب ودخلوا الغرفة .

وقال غريفوس : « إبحثوا في كل مكان ، واكتشفوا ما هو سره »

بحث الرجال في أرجاء الغرفة - في السرير ، تحت السرير ، وفي كل زاوية من زوايا الغرفة ، لكنهم لم يجدوا شيئاً .

إغتبط كورنيليوس لأنه لم يكن يحتفظ بالبصيلة الأخرى، بل أعطاها إلى روزا، وإلا لوجدها غريفوس وسحقها كما فعل بالأولى أما الأشياء التي عثر عليها غريفوس وأخذها معه ، فلم تكن سوى قلم رصاص وقطعة ورق .

جاء غريفوس مرة أخرى في الساعة السادسة ، فتحدث إليه كورنيليوس بلطف ، لكن غريفوس أحدث ضجيجاً غاضباً أضحك كورنيليوس .

فقال غريفوس وهو يخرج : « إضحك ! فليضحك الرجل الذي يربح » .

الفصل التاسع عشر

متى تتفتح الزهرة؟

جاءت روزا في المساء وتحدثنا عن كل شيء سوى الزنبقة السوداء. ترى، لماذا لم تتكلم روزا عن الزنبقة؟ بدا ذلك خطأها الوحيد ـ عدم التحدث عن الزنبقة.

ثم جاءت ثانية في المساء التالي وقالت:

«حسناً، لقد برزت».

«وما الذي برز؟»

«الزنبقة».

«إذن تسمحين لي بالحديث عن الزنبقة؟»

«أجل».

«هل ترتفع بشكل مستقيم؟»

«بشكل مستقيم تماماً».

فسأل كورنيليوس : « كم يبلغ إرتفاعها ؟ »

« نحو بوصتين »

« أرجوك روزا ! إعتني بها جيداً ، فستنمو بسرعة أكبر »

قالت روزا : « إنني لا أفكر بشيء آخر ، فهي أول شيء أراه في الصباح وآخر شيء أنظر إليه في المساء . وحين تكبر ، سأحصل على مئة ألف غيلدر وأتزوج شاباً لطيفاً عمره ستة وعشرون أو ثمانية وعشرون عاماً » .

« يا لك من روزا ! »

في كل مساء ، كان لدى روزا شيئاً تخبره لكورنيليوس عن الزنبقة :

« ظهرت عليها زهرة ، لكنها لم تتفتح بعد »

فصاح كورنيليوس :

« آه ! هل الزهرة في شكل جيد ؟ »

فقالت روزا :

« إنها رائعة »

وبعد يومين ، جاءت روزا وقالت : « إنها تتفتح ! »

- « هل ترين - هل ترين ـ أي لون ؟ »

- « أجل ، إنها داكنة جداً »

فقال كورنيليوس :

« هل هي بنيّة ؟ »

« بل أغمق من ذلك »

« أغمق من ذلـك ؟ هـل هي داكنـة كلون الكتـابـة في رسالتي ؟ »

« أجل ، إنها بنيّة داكنة جداً ، إنها سوداء تقريباً » .

أطلق كورنيليوس صيحة فرح .

« روزا ! أنتِ رائعة ! زنبقتي ستزهـر وستكـون سوداء ! روزا ! أنتِ رائعة . متى تعتقدين أن الزهرة ستتفتح ؟ »

قالت روزا : « خلال يومين أو ثلاثة »

قال كورنيليوس : « أجل ، غداً أو ربما بعد غد »

وقالت روزا ضاحكة : « بعد ذلك هل عليّ قطافها ؟ »

- « تقـطفينها ؟ أوه كـلا ! كلا ! كـلا ! حين تتفتح الـزهرة

ضعيها في الظل وابعثي برسالة إلى زارعي الأزهار في مدينة هارلم تذكرين فيها أن الزنبقة السوداء قد أزهرت. فالجائزة مقدّمة من زارعي الأزهار في هارلم. المسافة بعيدة إلى هارلم، لكن بإمكانك العثور على من يرسلها لك ـ هل لديكِ المال يا روزا؟»

قال روزا: «آه! أجل!»

«هل لديك ما يكفي؟»

قالت روزا: «لدي ثلاثمائة غيلدر».

قال كورنيليوس: «آه. إن كان لديك ثلاثمائة غيلدر، لا ينبغي أن ترسلي أحداً، بل عليك الذهاب شخصياً إلى هارلم يا روزا».

فقالت روزا:

«لكن ماذا سيحدث للزهرة؟»

«عليك أخذ الزهرة معك. وعدم الابتعاد عنها ولو للحظة».

قالت روزا:

«لكن فيما أكون مع الزهرة، سأكون بعيدة عنك».

قال كورنيليوس :

« أجل ، هذا أكيد . ورباه ، لماذا أنا في السجن ؟.. حسنا ، عليك إيفاد شخص مع الرسالة ، وربما أوفد زارعو الأزهار من يحمل الزهرة إلى هارلم . لكن . . . »

« لكن ماذا ، يا كورنيليوس ؟ »

قال كورنيليوس :

« لكن ما الذي سيحدث إن لم تكن الزهرة سوداء ؟ »

قالت روزا :

« ستعرف غداً أو بعد غد ، إن كانت الزهرة سوداء أم لا » .

« إنه وقت طويل للإنتظار . ألا تستطيعين إعطاء إشارة كي أعرف ؟ »

قالت روزا :

« إن تفتحت الزهرة ليلاً ، أحضر وأخبرك بنفسي . وإن تفتحت في النهار ، أدسّ لك ملاحظة تحت الباب » .

دقت الساعة العاشرة . فقالت روزا :

« عليّ الذهاب الآن . وسنعرف في الغد إن كانت الزهرة سوداء » .

الفصل العشرون

الخطوات السريعة

في تلك الليلة ، لم ينم كورنيليوس إلاّ قليلاً . فبعد كل بضع دقائق ، كان يظن أنه يسمع صوت روزا ، فيقفز من فراشه يقول لنفسه : « روزا تراقب الزهرة . كم أود لو أستطيع مراقبتها كذلك ! ما الذي سيقوله العالم حين يسمع أن الزنبقة السوداء العظيمة قد نبتت؟ وأنها أُنبتت على يد كورنيليوس فان بيرل وروزا ـ في السجن ! »

مضت ساعات الصباح ببطء ، وبدأت فترة بعد الظهر تتشح باللون الذهبي وهي تميل نحو المساء، وما لبث المساء أن أظلم حتى أصبح ليلاً .

دقت الساعة التاسعة ، ثم جاءت روزا . جاءت تركض بخطى سريعة ملؤها الفرح . قال كورنيليوس :

« ماذا لديك ؟ »

قالت روزا :

« كل شيء يسير على ما يرام ، لكنها لم تزهر بعد . ستزهر هذه الليلة »

« لكن هل ستكون سوداء ؟ »

« سوداء كالفحم ، سوداء كالليل ؛ إنني متيقنة أنها ستكون كذلك ! »

« عزيزتي روزا ! كنت أحلم طوال الليل بـ . . . » .

قالت روزا :

« بالزنبقة ؟ »

قال كورنيليوس بحكمة :

« بكِ أولاً ، ثم بالزنبقة بعد ذلك . وكنت أفكر ما ينبغي بنا أن نفعله » .

سألت روزا :

« وماذا ينبغي بنا أن نفعله ؟ »

قال كورنيليوس :

« لقد قرّرت بأن لا بدّ لنا من شخص يحمل الرسالة »

« آه ، وهل هذا كل شيء ؟ لقد وجدت من يحمل الرسالة » .

فسأل كورنيليوس :

« هل هو مأمون الجانب ؟ هل يمكننا الركون إليه ؟ »

« آه، أجل . فهو يحبني » .

« هل هو جاكوب ؟ »

قالت روزا :

« أوه ، كلا ، إسمه رالف، إنه شاب لطيف ، وهو يحبني ».

« آه ! »

« لكنه صغير جداً . لقد قلتَ أن الشاب يجب أن يكون بين السادسة والعشرين والثامنة والعشرين ، وعمر هذا خمسة وعشرون فقط ! »

فقال كورنيليوس :

« آه ! » ثم تابع حديثه قائلاً : « على هذا الشاب أن يصل إلى هارلم خلال عشر ساعات . يجب أن تكتبي

الفصل الثالث والعشرون

نحن نعرف السارق

مكث كورنيليوس واقفاً أمام الباب كما تركته روزا . إذ كان مغموراً بالسعادة حتى أنه لم يرغب بالحراك . ثم ذهب وجلس على السرير . مرت نصف ساعة ، وتسرب ضوء النهار عبر النافذة . ثم سمع خطوات على الدرج ورأى أمامه وجه روزا شاحباً ملؤه الخوف . فهبّ واقفاً ، فيما هتفت روزا :

« كورنيليوس ! كورنيليوس ! »

« ما الأمر يا روزا ؟ »

« كورنيليوس ! الزنبقة » .

« انطقي »

« كيف أُخبرك يا كورنيليوس ؟ لقد سرقها أحدهم . شخص ما سرقها منا » .

« سرقها ؟ »

رسالة يحملها إلى رئيس زارعي الأزهار ، عندئـذٍ يـأتي الرئيس إلى هنا في الحال » .

قـالت روزا : « لكن ماذا يحصـل إن لم يـأتِ الـرئيس بسرعة ، وتكون الزنبقة قد ذبلت ؟ »

« بل لا بدّ أن يـأتي ، فهو يعشق الزنبق . سيأتي بسرعة ليرى تلك الزهـرة الرائعـة ، حتى ولو إنتظر يومين ، فستبقى الزنبقة مزهرة يانعة ، فيعطيكِ ورقة تفيد بـأنه إستلم الـزهرة ؛ فتعطيه الـزنبقة إذ ذاك ليحملها معـه إلى هـارم . حبـذا لـو إستطعنا حمـل الزهـرة إليه بـأنفسنا . لكن ذلـك مستحيـل . يجب ألاّ يرى الزهـرة أحد قبـل أن يراهـا الرئيس ، عليـه أن يـراهـا قبـل الجميع . إن رآهـا أحـد سـواه ، فقـد تتعـرّض للسرقة » .

قالت روزا :

« أوه ! »

قال كورنيليوس :

« ألم تخبـريني أن جاكـوب هـو لص ؟ هـذه الـزنبقـة تبلغ قيمتهـا مئة ألف غيلدر . فكثيـر من النـاس مستعـدون لـسرقـة مئـة ألف غيلدر . عليك مـراقبة الـزهرة بـانتبـاه . حـاذري ! حاذري ! »

فقالت روزا : « سأراقبها ، وسأكون في غاية الحذر »

« أنتِ رائعة عزيزتي روزا ؛ أنتِ رائعة مثل ـــ »

قالت روزا :

« مثل الزنبقة السوداء . عمت مساء » .

الفصل الحادي والعشرون

رسالة إلى الرئيس

مكث كورنيليوس خلال الليل أمام نافذته ينظر إلى النجوم وينصت إلى الأصوات قائلاً لنفسه : « روزا هناك في غرفتها تراقب الزهرة لحظة بلحظة . إنها تنمو ، إنها تتفتح . هناك أمران عزيزان على قلبي في هذا العالم : روزا وزنبقتي . فهي تتلألأ كالنجوم ، وزنبقتي سوداء كسواد الليل » .

رأى شهاب يهوي في خط من نور في السماء . فقال :

« آه ! تلك إشارة » .

بدا الشهاب وكأنه إشارة ، إذ جاء في تلك اللحظة صوت خطوات ، وقالت روزا :

« كورنيليوس ! أسرع ! أنظر ! »

فهرع إلى الباب . « إنها متفتحة . إليك بها » .

رفعت إناء الزهور بيد ، وحملت المصباح باليد الأخرى .

صاح كورنيليوس :

« أواه ! حمداً لله على لطفه بي ، وأنا سجين مسكين ! »

كانت الزنبقة جميلة ، بارتفاع ثمانية عشرة بوصة . فيها أربع أوراق خضراء ؛ وزهرتها سوداء ـ سوداء كالفحم ، سوداء كليلٍ ليس فيه قمر أو نجوم .

هتف قائلاً :

« روزا ، أكتبي ، أكتبي بسرعة »

قالت روزا :

« لقد كتبت ، والرسالة جاهزة » .

أخذ كورنيليوس الرسالة . لقد بات خط روزا أفضل بكثير مما كان عليه في السابق .

« السيد الرئيس . . .

إن الزنبقة السوداء توشك على التفتح ، ربما تتفتح خلال عشر دقائق . وحالما تتفتح ؛ أرسل كتاباً أرغب

إليكم فيه الحضور لأخذها من سجن لوفستين . أنا إبنة حارس السجن غريفوس . وهذا ما يمنعني من إحضار الزنبقة إليكم .

أرغب أن نُسمّى الزنبقة روزا بيرل .

ها قد تفتحت الآن ! إنها سوداء . تعال يا حضرة الرئيس ، تعال !

روزا غريفوس . . . »

فقال كورنيليوس :

« إنها رسالة جيدة جداً . لم أكن لأستطع كتابة مثلها . فهي بسيطة وواضحة » .

سألته روزا :

« ما اسم الرئيس ؟ »

« فأكتب الإسم . أعطني الرسالة » .

كتب كورنيليوس :

« إلى السيد فان هريسن ، رئيس زارعي الأزهار في هارلم » .

« والآن يا روزا ، إذهبي ، إذهبي ! ولنضرع إلى الله الذي حمانا ، كي يحمي زهرتنا » .

الفصل الثاني والعشرون

اللحظة الأخيرة

بالفعل ، كان الشابان بحاجة ماسّة للحماية . فلم يسبق لهما أن كانا في خطر أشدّ من هذا .

والقارىء لا شك يعرف أن جاكوب هو بوكستل بالذات ، وأن بوكستل قدم إلى لوفستين للعثور على الزنبقة السوداء ، فتقرّب من غريفوس ، حتى استطاع إقناعه بأنه يرغب بالزواج من ابنته روزا ، وأخبره أن كورنيليوس سجين خطير للغاية وأنه يخطّط ضد الحكومة . وسرعان ما علم أن لدى روزا إحدى البصيلات ؛ ولذا راح يتبعها حيثما ذهبت . شاهد روزا تحمل إناء الزهور إلى غرفتها . فاستأجر غرفة بمنزل يواجه نافذة روزا ، وراح بواسطة منظاره يراقب كل ما كانت تقوم به . فرأى إناء الزهور في النافذة حيث تتسرب شمس الصباح . ورآه يُنقل إلى النافذة الأخرى بعد الظهر . كما

رأى الأوراق الأولى تبرز فوق التراب .

كيف له أن يسرقه ؟

روزا لم تكن تغادر غرفتها خلال النهار أبداً . بل تخرج في المساء ، وتحمل المفتاح معها على الدوام . في البدء ، خطر لبوكستل أن يسرق المفتاح ، لكنه أدرك أنها ستلاحظ بأن المفتاح قد ضاع ، فتأتي بمفتاح جديد مختلف .

أحضر بوكستل عدّة مفاتيح وجرّبها جميعاً فيما كانت روزا تتحدث إلى كورنيليوس ؛ لكن أحداً من المفاتيح لم يكن ملائماً . إذ ذاك غطّى بوكستل مفتاحاً بالشمع وحاول فتح الباب به . كانت على الشمع علامات ، فقطع حروفاً من المفتاح وحاول من جديد . وفي النهاية صنع مفتاحاً فتح به الباب .

قرر أن ينتظر إلى النهاية ، فحين تزهر الزنبقة ، يسرقها في اللحظة الأخيرة . إذ ذاك يكون الوقت متأخراً بما لا يسمح لـ فان بيرل إعلام القضاة بالأمر . وهكذا ، في كل مساء ، حين كانت روزا تذهب إلى كورنيليوس ، كان بوكستل يتوجّه إلى غرفة روزا ليرى كيف تنمو الزنبقة .

ثم شاهد روزا تحمل الزنبقة لتريها إلى كورنيليوس .

فتبعها وسمع كل شيء عن الرسالة . ورأى روزا تذهب إلى غرفتها . ثم رآها تغادر غرفتها ثانية كي ترسل الرسالة .

وما أن غادرت روزا غرفتها ، حتى فتح بوكستل الباب ودخل .

قالت روزا:

«أجل، شخص ما سرقها»، ثم هوت على ركبتيها.

فصاح كورنيليوس:

«لكن كيف؟ أخبريني».

«أوه، ليس عليك أن تلومني. الخطأ ليس مني. فقد خرجت من غرفتي للحظة فقط كي أتحدث إلى الرجل الذي سيحمل رسالتنا».

سأل كورنيليوس:

«وتركت المفتاح في الباب؟»

صاحت روزا:

«كلا؛ فالمفتاح كان بيدي. كنت أمسك به طوال الوقت».

سألها كورنيليوس:

«إذن كيف حصل ذلك؟»

«لا أستطيع ان أفهم. أعطيت الرسالة للرجل ورأيته ينطلق، فرجعت، وكان الباب مقفلاً. كان كل شيء في غرفتي تماماً كما تركته. لا بد أن أحداً قد صنع مفتاحاً لغرفتي».

كانت روزا تبكي . فصرخ كورنيليوس :

« سُرقت ! سُرقت ! لقد ضاع كل شيء ! »

« أوه ، كورنيليوس ، سامحني ! فذلك سيقتلني » .

قبض كورنيليوس على القضبان الحديدية يهزها وقال صارخاً :

« لقد سُرقت الزنبقة ، لكننا نعرف السارق ! - إنه جاكوب ! فهل نسمح له بحمل الزهرة إلى هارلم ؟ كلا ! بل علينا اللحاق به ! »

- « لكن كيف لي أن أذهب ؟ لست سوى فتاة » .

صرخ كورنيليوس :

« روزا ! روزا ! إفتحي لي هذا الباب وسأجد السارق . سأقبض عليه ! »

فقالت روزا :

« المفتاح ليس معي . كيف أستطيع فتح الباب والمفتاح ليس معي ؟ »

« المفاتيح مع والدك . لقد سحق البصيلة الأولى . وهو سارق أيضاً ؛ إنه يتعاون مع جاكوب ! عليك سرقة مفاتيحه » .

« وأنت ستقتلني ، ألبس كذلك ، يا زارع الزنبق المسكين ؟ وإبنتي ستساعدك في ذلك ؟ سأعرف كيف أعالج هذا الأمر . إذهبي يا روزا ، إذهبي من هنا ، فأنت لستِ إبنتي ! » .

وفجأة خطرت فكرة لروزا . فأسرعت نحو الدرجات تبكي : « لم يذهب أي شيء سدى يا كورنيليوس ، ثق بي ! »

إرتمى كورنيليوس على الأرض ، وقال هامساً :

ـ « لقد سُرقت ! سُرقت زنبقتي ! » ثم خبّأ وجهه بيديه وبكى .

لفصل الرابع
والعشرون

حانة الجواد الأبيض

غادر بوكستل السجن يحمل الزنبقة في قطعة قماش وقفز إلى عربة كانت تنتظره وانطلق بعيداً . لكنه لم يستطع الإسراع خشية أن تصاب الزنبقة بالضرر . ووصل أخيراً إلى بلدة دلفت ، حيث إبتاع صندوقاً وضع الزنبقة فيه بعناية . ولم يعد يخشى الآن أن يلحق أي ضرر بالزنبقة ، وأصبح بمقدوره السفر بسرعة أكبر .

وصل في اليوم التالي إلى هارلم ، وهناك وضع الزنبقة في وعاء جديد بعد أن حطم الوعاء القديم ورمى الحطام في مجرى النهر . ثم كتب رسالة الى رئيس زارعي الأزهار يقول فيها أنه وصل لتوّه إلى هارلم يحمل معه زنبقة سوداء رائعة . ثم ذهب إلى حانة فخمة ينتظر .

أما روزا ، فحين تركت كورنيليوس ، كانت قد عزمت على أن تعيد إليه الزنبقة السوداء وإلا فلن تراه ثانية .

ذهبت إلى غرفتها لتأخذ ما يلزمها من أغراض للرحلة. أخذت الثلاثمائة غيلدر التي تملك، وأخذت كذلك البصيلة التي ما تزال في الورقة حيث وضعها كورنيليوس، ثم ذهبت لتحضر عربة. لم يكن في المكان سوى عربة واحدة، ولا شك فقد استقلّها بوكستل. ولما لم تستطع الحصول على عربة، أخذت حصاناً، والأمل يحدوها أن تستطيع السفر بسرعة كي تلحق بـ رالف، القبطان الذي سبق لها أن حمّلته الرسالة. وسرعان ما رأته في الطريق أمامها. فاقتربت منه واسترجعت الرسالة (التي لم تعد بذي فائدة). ثم تابع رالف الرحلة معها.

وصلت إلى دلفت في ذلك المساء. وفي الصباح التالي، وصلت إلى هارلم بعد أربع ساعات فقط من وصول بوكستل.

ما أن وصلت إلى هارلم، حتى ذهبت إلى منزل السيد فان هريسن، رئيس زارعي الأزهار، وسألت إن كانت تستطيع مقابلته. فأُخبرت بأنه منشغل ولا يستطيع رؤيتها. فقالت للخادم:

«هلا أخبرت الرئيس بأنني أود التحدث إليه بشأن الزنبقة السوداء؟».

عاد الخادم في الحال وقادها إلى داخل المنزل .

كان السيد فان هريسن رجلاً نحيلاً قصير الجسم ، وله رأس ضخم ؛ في الواقع كان اشبه بزنبقة . فقال لها :

« حسناً ، جئت للتحدّث إليّ بشأن الزنبقة السوداء ؟ »

قالت روزا :

« أجل ، فالأمر كذلك »

« هل الزنبقة على ما يرام ؟ هل أصابها مكروه ؟ »

« نعم » ، قالت روزا . « أصابها مكروه عظيم ، فقد سُرقت » !

« ماذا ؟ »

قالت روزا :

« نعم ، لقد سُرقت مني » .

سألها الرئيس :

« وهل تعرفين اللص ؟ »

فقالت روزا :

«أظن أنني أعـرف من هـو اللص. لكن بمـا أنـني لسـت متأكدة، فيحسن بي عدم التكلّم».

أجاب الرئيس:

«لابد أن اللص في مكان قـريب، لأنني رأيت الزنبقـة منذ ساعتين».

هتفت روزا:

«هل رأيت الزنبقة السوداء!»

أجاب الرئيس:

«رأيتها فعلاً».

سألت روزا:

«أين رأيتها؟»

«رأيتها مع سيدك. سيدك أطلعني عليها».

صاحت روزا:

«سيدي؟»

أجاب الرئيس:

«أجل. ألستِ خادمة السيد إسحق بوكستل؟».

قالت روزا :

« لا أعرف من هو السيد بوكستل » .

أجاب الرئيس :

« إن كانت الزنبقة قد سُرقت ، فقد سُرقت من السيد إسحق بوكستل » .

« هل هناك أية زنبقة سوداء غير زنبقتي ؟ »

« نعم . هناك زنبقة السيد إسحق بوكستل » .

« وهل هي سوداء ؟ »

« نعم » .

« سوداء كالفحم ، ومن دون أي لون آخر ؟ »

« نعم » .

سألت روزا :

« وهل لديك هذه الزنبقة هنا ؟ »

« كلا . إنها ليست هنا . لكنها ستعرض على قضاة زارعي الأزهار في هارلم قبل تقديم الجائزة » .

هتفت روزا :

« أوه ، سيدي ، بوكستل هذا ، إسحق بوكستل هذا

الذي يدّعي أنه صاحب الزنبقة السوداء ـ هل هـو رجل نحيف جداً ؟ » .

«نعم» .

فسألت روزا:

«بدون أي شعر في رأسه؟»

«نعم» .

«وهل عيناه غارقتان جداً؟»

«نعم» .

«وهل يمد رأسه إلى الامام وهو يمشي؟»

قال الرئيس:

«حقاً، لقد وصفتِ السيد بوكستل جيداً» .

« والزنبقة ، هـل هي موضـوعة في إنـاء أبيض على جـوانبه علامات صفراء ؟ » .

قال الرئيس:

« لست متأكداً تماماً من ذلك ، فأنا لم أنظر إلى الإنـاء . لقد نظرت إلى الزهرة أكثر مما نظرت إلى الإناء » .

فقالت روزا :

« إنها زنبقتي التي سُرقت مني وقد جئت أطلبها » .

قال السيد فان هريسن :

« أوه ! أوه ! هل تقولين أن زنبقة السيد بوكستل هي لك ؟ »

صاحت روزا :

« بل أقول أن زنبقتي قد سُرقت . أقول أن الزنبقة السوداء هي لي » .

« لكِ ؟ »

صاحت روزا :

« نعم ، فأنا زرعتها واعتنيت بها ، إنها لي - لي - لي ! »

« حسناً ، إذهبي وابحثي عن السيد بوكستل . إذهبي إلى حانة الجواد الأبيض حيث يقيم . وبامكانك التحدث إليه وتسوية الأمر معه . سأكتب إلى القضاة بأنني رأيت الزنبقة السوداء، وأنه يجب دفع مئة ألف غيلدر إلى الشخص الذي استنبتها . إلى اللقاء يا طفلتي » .

صاحت روزا : « أوه ، سيدي ! سيدي ! » .

قال السيد فان هريسن :

أنتِ شابة وجميلة ، ولعل فيك نفحة خير وصلاح . كوني حذرة . إن لدينا سجناً في هارلم . فالأشخاص الذين لا ينطقون الصدق يذهبون إلى السجن » .

تناول قلمه وبدأ يكتب . وخرجت روزا ـ إلى حانة الجواد الأبيض

الفصل الخامس والعشرون

الشخص المزيّف

إنطلقت روزا إلى حانة الجواد الأبيض ، يتبعها القبطان الشاب الذي حمل لها الرسالة . كان شاباً قوي البنية لا يتردّد في محاربة أيٍّ كان ، وقد أخبرته روزا بكامل القصة .

وفيما هي تسير في الشارع ، خطرت لها فكرة مفاجئة ، فصاحت : « أوه ! لقد إقترفت خطأ فظيعاً ! لقد أعطيت الإنذار : سيعرف بوكستل أنني هنا وسيتحد مع جميع الرجال ضدي ـ وربما ليس هذا الرجل جاكوب ؛ ربما كان رجلاً آخر استنبت زنبقة سوداء كذلك . أو إن كان جاكوب ، فالزنبقة ستموت أثناء عراكنا ، فما الذي سيحدث عندئذٍ؟ » .

سُمعت ضجة كبيرة في الشارع . وكانت الأبواب تُفتح وتُغلق ، والناس يركضون ويصيحون : « الأمير قادم » . لكن روزا لم تلحظ شيئاً ، بل قالت : « علينا أن نعود إلى الرئيس » .

كان السيد فان هريسن مازال جالساً إلى طاولته يكتب ولما رأى روزا ثانية إستشاط غضباً وصاح :

« إذهبي ! لا تعودي . إذهبي إلى حانة الجواد الأبيض أو إذهبي - » .

« أرجوك ، اسمع ما سأقوله لك . إن لم تفعل ، فستندم . إن أعطيت الجائزة إلى من لا يستحقّها ، فماذا سيقول الناس عنك ؟ إسمعني ! فليؤتَ بالسيد بوكستل أمامك وأمامي . أنا أقول انه السيد جاكوب ، وأن الزنبقة هي لي . فإن لم اتعرف عليه ، أو لم يسبق أن شاهدته من قبل ، أو لم تكن الزنبقة زنبقتي - ، فلن أقول شيئاً . ويمكنك أن تفعل بي ما تشاء » .

« لكن لنفترض أنه جاكوب ، وأن الزنبقة لكِ ، فكيف يمكنك إثبات ذلك ؟ » .

قالت روزا :

« أنت رجل شريف ، ولن ترغب في إعطاء الجائزة إلى شخص لا يستحقها ؛ وأنا شريفة أيضاً ولا أرغب في نيل جائزة ليست لي » .

فتح فان هريسن فمه ليجيب ، لكن صراخاً شديداً صدر

من الشارع ، فقفز فجأة من كرسيه وصاح:

«ما هذا؟ هل سمعت جيداً؟ هل هذا ممكن؟»

ثم أسرع إلى خارج الغرفة . وما أن وصل فان هريسن إلى أعلى السلم حتى رأى شاباً يصعد . كان يرتدي حريراً أزرق مطعّماً بالفضة ، يلحق به حشدٌ من رجال أفاضل .

إنحنى السيد فان هريسن وقال : « سيدي ! » .

كان الرجل أمير الأورانج ، حاكم هولندا .

قال السد فان هريسن : « لقد شرّفتنا ، سيدي ! » .

فقال الأمير:

«عزيزي فان هريسن، إنني كسائر شعب هولندا، أحب المراكب والجبن والأزهار، ومن بين سائر الأزهار أحب الزنبق أكثر من غيره. لقد سمعت أن زنبقة سوداء رائعة قد استنبتت، وقد جئت أسأل عنها. فهل الزنبقة لديك هنا؟»

فأجاب فان هريسن:

«آسف، سيدي، ليست الزنبقة بحوزتي».

سأل الأمير:

«أين هي؟»

« إنها بحوزة صاحبها ، إنه زارع زنبق في دورت ، وهو في حانة الجواد الأبيض ، اسمه بوكستل » .

فأمر الأمير :

« ارسل في طلبه إلى هنا » .

أجاب فان هريسن :

« حسناً ، سيدي . ولكن — »

« ما الأمر ؟ »

فأجاب فان هريسن :

« أود ، لا شيء ؛ لا شيء مهم » .

قال الأمير :

« إن كل شيء مهم » .

قال فان هريسن :

« هناك صعوبة طفيفة » .

فسأل الأمير :

« وما هي الصعوبة ؟ »

« لدينا إمرأة تقول أن الزنبقة تخصّها ، وأنها قد سُرقت » .

سأل الأمير :

« وما رأيك بالأمر ؟ »

قال فان هريسن :

« أعتقد ، سيدي ، أنها ليست صادقة على ما يبدو ، وأنها تريد المئة ألف غيلدر » .

سأل الأمير :

« كيف لها أن تثبت أن الزنبقة تخصّها ؟ »

قال فان هريسن :

« كنت على وشك استجوابها حين دخلت يا سيدي » .

أجاب الأمير :

« إستجوبها . إستجوبها الآن ، وسأحكم أنا بالأمر » .

دخل الأمير والسيد فان هريسن إلى الغرفة حيث كانت تقف روزا ، إلتفتت ونظرت إليهما ، ولعدم معرفتها بالأمير ، فلم تكترث له . تناول الأمير كتاباً وبدأ يقرأه ــ أو تظاهر بقراءته . ثم تطلع وأشار إلى فان هريسن وقال : « إبدأ » . ثم تابع قراءة كتابه .

جلس فان هريسن ، فيما ذهب ضابط لإحضار بوكستل ، « يا طفلتي ، هل تعدي بأن تخبريني الحقيقة كاملة بشأن هذه الزنبقة ؟ »

قالت روزا :

« « أجل ، أعدك » .

قال السيد فان هريسن :

« يمكنك الكلام أمام هذا السيد . فهو واحد من زارعي الأزهار »

قالت روزا :

« حسناً . لكن ماذا أخبرك ؟ لقد أخبرتك كل شيء » .

سأل الرئيس :

« ماذا تريدين إذن ؟ »

« أريدك أن تطلب إلى السيد بوكستل الحضور إلى هنا مع زنبقته . فإن لم تكن زنبقتي ، فسأقول ذلك بكل صدق . وإن كانت زنبقتي ، فسأطلب إستعادتها حتى وإن كان عليّ المثول أمام أمير الأورانج بنفسه » .

فسأل فان هريسن : « وكيف تثبتين ذلك ؟ »

فقالت :

« سيساعدني الله في إثبات ذلك » .

وفيما كان أمير الأورانج ينظر إلى روزا ، خطر له أنه تذكّرها . فأين سمع هذا الصوت العذب في السابق ؟

سأل فان هربسن :

« لمَ تقولين أن الزنبقة السوداء هي لك ؟ »

قالت روزا :

« أقول ذلك لأنها زُرعت ونمت في غرفتي »

« في غرفتك ؟ - أين غرفتك ؟ »

أجابت روزا :

« في لوفستين . إنني إبنة حارس السجن هناك » . تطلع الأمير وقال بهدوء :

« آه ! لقد تذكرت الآن » ،

ثم راقب روزا بإهتمام أكبر ، فيما سألها فان هربسن :

« هل تحبين الأزهار ؟ »

« أجل سيدي »

« وهل تعرفين الكثير عن الأزهار ؟ »

فلم تجب روزا ، فسألها مرة أخرى :

« هل تعرفين الكثير عن الأزهار ؟ »

لم تجب روزا لبرهة ، ثم قالت :

« هل أستطيع الوثوق بك كرجل شريف ؟ » .

فقال فان هريسن :

« بلى ، بالطبع »

وقال الأمير :

« أوه ، نعم »

ـ « حسناً ، لا أعرف الكثير عن الأزهار . لستُ سوى فتاة مسكينة . منذ ثلاثة أشهر لم أكن أعرف حتى القراءة أو الكتابة ، ولست من استنبت الزنبقة السوداء »

فسأل فان هريسن :

« إذن من إستنبتها ؟ »

ـ « سجين مسكين في لوفستين » .

وقال الأمير :

« سجين في لوفستين ! » .

برز الاستغراب في لهجة الأمير ؛ إذ بات على يقين الآن من مكان وزمان سماعه لذلك الصوت ، فقال :

« ذلك سجين خاص أُرسل إلى هناك من قبل الحكومة ـ سجين دولة ؟ » .

أجابت روزا :

« أجل ، لقد أُستنبتت الزنبقة بواسطة سجينٍ للدولة »

قال أمير الأورانج :

« تابعي ، تابعي ، لنسمع البقية »

قالت روزا :

« آه يا سيدي ، سأوقع نفسي في المتاعب »

أجاب فان هريسن :

« حقاً ، فهناك أوامر تقضي بألا يتحدث أحد إلى سجينٍ للدولة . أليست هنالك مثل هذه الأوامر ؟ »

ـ « بلى ، سيدي »

قال فان هريسن :

« وأنتِ ، كابنة حارس السجن ، تحدثت إلى ذلك السجين عن زراعة الأزهار ؟ »

فقالت روزا بخوف شديد :

« نعم سيدي ، لقد فعلت ، وكنت أراه في كل يوم »

قال فان هريسن :

« إنه لأمر سيء للغاية أن تتحدثي إلى سجين للدولة كل يوم » .

لاحظ الأمير كم كانت روزا خائفة ، فتطلع إليها وقال :

« الأمر لا يتعلق بزارعي الأزهار في هارلم ، بل ينبغي معالجته بواسطة قاضٍ في المحكمة . وبصفتك رئيساً لهيئة زارعي الأزهار ، فليس عليك سوى الحكم في مسألة الزنبقة . تابعي أيتها الصبيّة ؛ تابعي » .

فقال فان هريسن :

« شكراً ، سيدي »

أفضت روزا ، بعد أن تضاءل خوفها ، بكل ما حدث خلال الأشهر الثلاثة الماضية ، فذكرت كم كان غريفوس قاسياً مع السجين ؛ وكيف سُحقت البصيلة الأولى ؛ وكم كان السجين حزيناً ؛ وكيف بذل الجهد للتأكد من نمو البصيلة الثانية ؛ وكم حزن كورنيليوس خلال الإنفصال ،

وكيف إمتنع عن الطعام ؛ وكم كان سعيداً حين ذهبت لتراه من جديد . وذكرت أخيراً كيف سُرقت الزنبقة بعد ساعة واحدة من تفتّحها .

تحدثت ببساطة متناهية حتى كاد فان هريسن يصدق أن تلك هي الحقيقة .

وقال الأمير :

« لكنك لم تعرفي السجين منذ مدة طويلة »

فتحت روزا عينيها الكبيرتين ونظرت إلى الغريب . وبدا أن الأمير ينسحب إلى زاويته في الغرفة وكأنه لا يرغب أن يتعرّف عليه أحد .

فسألته روزا :

« وكيف عرفت ذلك ؟ لمَ تقول هذا ؟ »

قال الأمير :

« لم يمضِ سوى أربعة أشهر على إرسال حارس السجن غريفوس وإبنته من هايغ إلى لوفستين »

قالت روزا :

« هذا صحيح يا سيدي » .

ـ « أنتِ نفسك طلبتَ أن يُنقل والدك من هايغ إلى لوفستين ؛ أنتِ فعلتِ ذلك لتتمكني من اللحاق بذلك السجين . أليس كذلك ؟ »

قالت روزا وهي تنظر إلى الأرض :

« سيدي ! »

وسأل الأمير :

« ما الذي تودين قوله ؟ »

قالت روزا :

« تعرّفت إلى السجين في هايغ »

قال الأمير :

« يا للسجين السعيد ! »

إذ ذاك ، عاد الضابط الذي أُرسل لإحضار بوكستل ، وقال أن بوكستل قادمٌ مع زنبقته .

الفصل السادس والعشرون

أمير الأورانج

دخل بوكستل إلى الغرفة الخارجية يتبعه رجلان يحملان صندوقاً ضخماً . وضعا الصندوق على الطاولة ، ثم فُتح الصندوق ، وكانت الزنبقة بداخله .

نهض الأمير عن كرسيه ، وذهب إلى الغرفة الثانية فنظر إلى الزهرة ثم عاد .

سمعت روزا صوت بوكستل فصاحت :

« إنه هو ! إنه جاكوب ! »

خاطب الأمير روزا بهدوء قائلاً :

« إذهبي إلى الباب وانظري »

أسرعت روزا إلى الباب وصاحت :

« إنها زنبقتي ! أنا أعرفها . يا لكورنيليوس المسكين ! »

ذهب الأمير إلى الباب حيث سطع نور الشمس من

النافذة على وجهه ، فازدادت روزا يقيناً أنها رأت هذا الرجل في مكان ما من قبل .

فقال الأمير :

« سيد بوكستل ، هلاّ تفضلت بالدخول إلى هنا »

دخل بوكستل إلى الغرفة وصاح :

« أمير الاورانج ، سيدي ! » .

هتفت روزا :

« أمير الأورانج ! »

إلتفت بوكستل لدى سماعه صوت روزا ، وبدا مندهشاً منزعجاً ، فقال الأمير لنفسه :

« آه ! إنه ليس مسروراً لرؤية روزا »

حاول بوكستل أن يبدو هادئاً ، وقال الأمير :

« سيد بوكستل ، هل إكتشفت سر إستنبات الزنبقة السوداء ؟ »

فقال بوكستل بصوت مرتعش :

« أجل ، سيدي » .

قال الأمير :

« لكن صبيّة هنا تقول أنها هي التي إكتشفته »

ضحك بوكستل ضحكة قصيرة ، وراح الأمير يراقبه عن كثب ، ثم قال :

« إذن أنت لا تعرف هذه الفتاة ؟ »

فأجاب بوكستل :

« كلا ، سيدي »

- « وأنت أيتها الطفلة ، هل تعرفين السيد بوكستل ؟ »

أجابت روزا :

« كلا ، سيدي ؛ أنا لا أعرف السيد بوكستل ، بل أعرف السيد جاكوب »

- « ماذا تقصدين ؟ »

- « أقصد أن هذا الرجل كان يدعو نفسه السيد جاكوب في لوفستين »

سأل الأمير :

« ما جوابك على هذا ، سيد بوكستل ؟ »

أجاب بوكستل :

« أقول أنها لا تنطق بالحقيقة »

فسأل الأمير :

« هل تقول أنكَ لم تذهب إلى لوفستين أبداً ؟ »

لم يجب بوكستل في الحال ، وكانت عينا الأمير قد تركزتا عليه ، ثم قال أخيراً :

« ذهبت إلى لوفستين ، لكنني لم أسرق الزنبقة »

وصاحت روزا بغضب :

« بل سرقتها فعلاً ! سرقتها من غرفتي »

ـ « لم أسرقها ! »

قالت روزا :

« الآن اسمعني ، ألم تلحق بي إلى الحديقة يوم حضّرتُ الأرض للبصيلة ؟ ألم تلحق بي إلى الحديقة يوم تظاهرتُ بزرعها ـ لكنني لم أزرعها ؟ وحالما خرجت من الحديقة ، ألم تهرع إلى المكان آملاً في العثور على البصيلة ؟ ألم تضع يديك في التراب ـ ولم تستطع الحصول عليها لأنها لم

أجاب بوكستل :

« أقول أنها لا تنطق بالحقيقة »

فسأل الأمير :

« هل تقول أنك لم تذهب إلى لوفستين أبداً ؟ »

لم يجب بوكستل في الحال ، وكانت عينا الأمير قد تركزتا عليه ، ثم قال أخيراً :

« ذهبت إلى لوفستين ، لكنني لم أسرق الزنبقة »

وصاحت روزا بغضب :

« بل سرقتها فعلاً ! سرقتها من غرفتي »

- « لم أسرقها ! »

قالت روزا :

« الآن اسمعني ، ألم تلحق بي إلى الحديقة يوم حضّرتُ الأرض للبصيلة ؟ ألم تلحق بي إلى الحديقة يوم تظاهرتُ بزرعها - لكنني لم أزرعها ؟ وحالما خرجت من الحديقة ، ألم تهرع إلى المكان آملاً في العثور على البصيلة ؟ ألم تضع يديك في التراب - ولم تستطع الحصول عليها لأنها لم

تكن هناك . لقد كانت حيلة : كانت حيلة فقط لنكتشف من أنت - لص ! قل ، أليست هي الحقيقة ؟ » .

لم يجب بوكستل ، بل إلتفت إلى الأمير وقال :

« سيدي ، منذ عشرين سنة وأنا أزرع الزنبق في دورت . إنني معروف بين زارعي الزنبق . لقد أنتجتُ عدة أنواع جديدة من الزنبق . وعرفت هذه الصبية أنني إستنبتُ الزنبقة السوداء ، فوَضَعَتْ خطة مع عشيقها (السجين في لوفستين) لتسرق جائزة المئة ألف غيلدر » .

صاحت روزا بغضب شديد :

« ياه ! ياه ! »

قال الأمير :

« هدوء ! »

ثم إلتفت نحو بوكستل وأضاف :

« ومن هو السجين الذي تقول أنه عشيق الفتاة ؟ »

خافت روزا لأن كورنيليوس كان سجيناً خطيراً للغاية ينبغي بالحارس مراقبته بحذر .

سُرَّ بوكستل بالسؤال فأجاب قائلاً :

« السجين ، سيدي ، رجل خطير جداً ، وقد أمر القاضي ذات مرة بقطع رأسه . فترى بسهولة أنه لا يجدر بك تصديق كلام ذلك الرجل » .

فسأل الأمير :

« ما إسمه ؟ » .

خبّأت روزا وجهها بيديها ، وقال بوكستل :

« إسمه كورنيليوس فان بيرل وقد كان صديقاً لـ كورنيلبوس دي ويت »

بدا الأمير مندهشاً وبرز بريقٌ من عينيه ، فتوجّه إلى روزا وقال :

« أبعدي يديك عن وجهك . لقد طلبتِ مني أن أنقل والدكِ من هايغ إلى لوفستين لأنك أردت اللحاق بـ فان بيرل . أليست هذه الحقيقة ؟ »

قالت روزا :

« أجل سيدي . إنها الحقيقة »

ثم خاطب الأمير بوكستل قائلاً : « تابع »

فقال بوكستل:

«ليس لديّ ما أضيفه. أنت تعرف كل شيء. هناك شيء بإمكاني إضافته؛ لكنني لم أشأ ذلك لأن المرء لا يود البوح بمثل هذه الأشياء. لقد ذهبتُ إلى لوفستين بسبب أعمال لديّ هناك. قابلت غريفوس، وأردت الزواج من إبنته روزا. لست غنياً، وقد أخبرتها وأخبرت والدها بأنني آمل في كسب المئة ألف غيلدر مقابل زنبقتي. فأطلعتهما على النبتة، وكان عشيقها قد إستنبت عدة زنابق في دورت. وكان بالفعل يضع الخطط ضد الحكومة. ولم يزرع الزنبق إلاّ للتغطية على عمله الحقيقي. فقرر غريفوس وإبنته سرقة زنبقتي. وفي المساء الذي كنت أتوقع تَفَتُّحَ الزهرة فيه، سرقت هذه الشابة النبتة. فحملتها إلى غرفتها وعرضتها على الناس على أنها زنبقتها. وكَتَبَتْ رسالة إلى رئيس زارعي الأزهار تقول فيها أنها إستنبتتها. ـ فأخذتها من غرفتها».

صاحت روزا وهي تلقي بنفسها على قدمي الأمير:

«أوه! يا لهذا الكذب!»

الفصل السابع والعشرون

البصيلة الثالثة

ظن الأمير أن روزا مذنبة، لكنه شعر بالأسف عليها وهي مرتمية على قدميه، فقال لها:

«أخطأتِ كثيراً يا طفلتي. ربما قادك عشيقك إلى الإثم. أنت شابة تتمتعين بصدق التفكير؛ ولا يمكنني التصديق بأنك مذنبة دون سواك».

فصاحت روزا:

«سيدي! سيدي! لم يقترف كورنيليوس أي خطأ، لا شيء أبداً».

قال الأمير:

«أتقصدين أنه لم يطلب منك سرقة الزنبقة ؟»

«بل لم يقترف أي خطأ يدخل السجن بسببه».

قال الأمير:

«لقد أُدخل السجن لأنه احتفظ برسائل كتبها كورنيليوس دي ويت إلى ملك فرنسا».

«لم يكن يعرف شيئاً عن تلك الرسائل. فلو كان يعرف شيئاً عن تلك الرسائل، لأخبرني، فأنا أعرفه. أوه، ليتك تعرفه كما أعرفه أنا!»

فصاح بوكستل:

«كان صديقاً لـ دي ويت، والأمير يعرفه جيداً فقد وهبه حياته».

قال الأمير:

«الصمت! إنها شؤون الحكومة ولا تتعلق بك أبداً».

ثم تابع الأمير يقول:

«لا تخف يا سيد بوكستل. سأفعل ما يصح في أمر زنبقتك».

والتفت إلى روزا يقول:

«وأنت يا طفلتي كنت على وشك اقتراف خطأ كبير، لكن

الخطأ ليس خطأوك ، فقد قادك فان بيرل إلى الإثم ، ووضع خططاً ضد الحكومة ، ونجد الآن أنه لص كذلك » .

صاحت روزا :

« لص ! كورنيليوس لص كيف يمكنك قول مثل هذا ؟

إن هذا الرجل ، جاكوب هذا ، بوكستل هذا هو اللص »

فقال بوكستل :

« اثبتي ذلك إن إستطعت »

صاحت روزا :

« سأثبت ذلك . سأفعل ذلك بعون الله »

ثم إلتفتت إلى بوكستل وقالت :

« هل الزنبقة لك ؟ »

أجاب :

« أجل »

فسألت روزا :

« وكم بصيلة كان هناك ؟ »

لم يجب بوكستل في الحال ، لكنه كان يعلم أن هناك

بالعادة ثلاث بصيلات ، فأجاب :

« ثلاثة »

ـ « أين البصيلات الثلاث ؟ وماذا حدث لها ؟ »

فقال لها :

« حسناً . إحداها لم تنمو . والثانية أنبتت الزنبقة السوداء »

قالت روزا :

« والثالثة »

«الثالثة؟»

صاحت روزا :

« نعم ، الثالثة ! أين هي ؟ »

قال بوكستل :

« إنها عندي في المنزل »

قالت روزا :

« في منزلك . في لوفستين أم في دورت ؟ »

قال بوكستل :

« في دورت »

صاحت روزا :

« إنك تنطق الأكاذيب ! »

ثم إلتفتت نحو الأمير :

« سيدي ، سأخبرك القصة الحقيقية لتلك البصيلات . لقد سحق والدي البصيلة الأولى بقدمه في غرفة سجن فان بيرل ؛ وهذا الرجل يعرف ذلك لأنه غضب كثيراً من والدي . أما البصيلة الثانية ، التي زرعتها بنفسي ، فقد أنبتت الزنبقة السوداء ، والثالثة ـ »

قال الأمير :

« نعم ؟ البصيلة الثالثة ؟ »

قالت روزا وهي تُخرجها من ثوبها :

« ها هي ، إنها في نفس الورقة التي وضعها فيها فان بيرل حين اقتيد إلى الموت . ها هي ، سيدي ، خذها ! »
أخذ الأمير البصيلة ونظر إليها بعناية بالغة ، فقال بوكستل :

« لكن سيدي ، ربما سرقت هذه الشابة البصيلة كما سرقت الزنبقة » .

لم يجب الأمير ، إذ كان ينظر إلى البصيلة ، وكانت روزا تقرأ الورقة . فلمعت عيناها ، ثم أطلقت صيحة فجأة وقدّمت الورقة إلى الأمير ، قائلة :

« إقرأ سيدي ؛ إقرأها ! »

أعطى الأمير البصيلة إلى فان هريسن ثم تناول الورقة وراح يقرأوها فامتلأت نظراته ألماً حتى كاد يسقط الورقة إلى الارض . كانت تلك الصفحة المأخوذة من كتاب أعطاه كورنيليوس دي ويت إلى كريك وأُرسلت إلى فان بيرل كرسالة .

« عزيزي فان بيرل . .

أرجو إحراق الرسائل التي أعطيتك إياها من دون النظر إليها ، إذ تعرّض سلامتك للخطر بالاطّلاع على مضمونها . فبادر إلى إحراقها فتنقذ حياة وإسم كورنيليوس وجون دي ويت .

كورنيليوس دي ويت
٢٠ آب (أغسطس) ١٦٧٢ »

برهنت هذه الورقة أمرين . أثبتت أن فان بيرل لم يكن يعلم ما بداخل الرسائل وأنه لم يضع أي خطط ضد الحكومة ؛ كما برهنت أنه صاحب الزنبقة .

نظرت روزا إلى الأمير ونطقت عيناها « أترى ! » رغم أن شفتيها لم تتحركا .

وتطلع الأمير إلى روزا ونطقت عيناه : « كوني هادئة . إنتظري » .

كان الأمير يفكر . كان يفكر بالماضي ، بالخطأ الذي إقترفه حين ترك الناس يقتلون الأخوين دي ويت ، ثم تطلع وقال :

« إذهب سيد بوكستل ، فسأفعل الشيء المناسب »

والتفت صوب فان هريسن :

« وأنت يا عزيزي فان هريسن ، أرجو العناية بهذه الشابة وبالزنبقة ـ الوداع » .

نزل السلم ، وسمعوا صياح الجمهور في الشارع :

« يحيا الأمير »

عـاد بوكسـتل إلى الحانـة يرتعـد من الخوف . فمـا الذي كـان مكتـوبـاً في الورقـة التي أعطتهـا روزا إلى الأمـيـر ؟ لكم تمنّى أن يعرف . وما معنى كل ذلك ؟

أمـا روزا ـ فتـوجّهت نحـو الـزنبقـة وراحت تقبّـل أوراقهـا وتهمس قائلة : « آه ، أشكـرك يـا إلهي إذ جعلتْ كورنيليـوس الطيب يعلمني كيف أقرأ » .

الفصل الثامن والعشرون

رسالة إلى لوفستين

مكثت روزا والزنبقة في منزل السيد فان هريسن وبقيت هناك لبضعة أيام . وفي ذات مساء ، قدم ضابط لدى أمير الأورانج إلى منزل فان هريسن يستدعي روزا إلى دار البلدة .

كانت في الدار غرفة كبيرة جلس فيها الأمير يكتب ، وفيما تابع الأمير الكتابة ، كان كلب كبير يستلقي على الأرض بالقرب منه . تطلع الأمير ورأى روزا ماثلة أمامه ، فقال :

ـ « تعالي يا طفلتي »

سارت روزا بإتجاه الطاولة . فقال :

« أجلسي » .

جلست ، فنهض الكلب إلى روزا وشرع يتودّد إليها .

قال الأمير :

« آه ! كلاكما من نفس المنطقة في البلد ؟ لذا تتصادقان بسهولة ويُسر » . ثم إلتفت إلى روزا وقال : « الآن يا طفلتي ، نحن على إنفراد . لنتكلم سوية » .

خافت روزا ؛ ومع ذلك فلم يبرز سوى اللطف والمودّة في وجه الأمير .

« هل والدك في لوفستين ؟ »

« نعم سيدي » .

« ألا تحبينه ؟ »

فقالت :

« كلا . عليّ محبّته بصفتي ابنته لكنني لا أحبه » .

قال لها :

« على الطفلة أن تحب والدها . لكن يصحّ أن تقولي الحقيقة ـ لم لا تحبين والدك ؟ »

قالت روزا :

« لأنه رجل شرير . فهو ظالم مع السجناء » .

« ظالم معهم جميعاً ؟ »

قالت روزا :

« إنه ظالم مع فان بيرل بشكل خاص » .

« وفان بيرل عشيقك ؟ »

قالت :

« إنني أحبه ، سيدي »

سأل الأمير :

« منذ متى تحبينه ؟ »

أجابت روزا :

« منذ رأيته لأول مرة . كان ذلك بعد مقتل كورنيليوس وجون دي ويت » .

فسأل الأمير :

« وما الفائدة من حب رجل يقضي حياته في السجن ويموت هناك ؟ »

أجابت روزا :

« إن كان سيعيش ويموت في السجن ؛ فبامكاني مساعدته في الحياة وفي الموت » .

« وهل ستكوني قانعة بكونك زوجة سجين ؟ »

« إن كوني زوجة السيد فان بيرل سيجعلني أكثر النساء إعتزازاً وسعادة في العالم . لكن ـ »

سأل الأمير :

« لكن ماذا ؟ »

أجابت روزا :

« لا أجرؤ على القول ، سيدي » .

نظرت إلى الأمير بعينين تتوسلان الرحمة .

قال :

« آه ، إنني أفهمك . تأملين بمساعدتي لكِ ؟ »

أجابت روزا :

«أجل سيدي » .

طوى الأمير الرسالة التي كان يكتبها . ونادى على أحد الضباط : « كابتن فان ديكن ، خذ هذه الرسالة إلى لوفستين واقرأ الأوامر على المسؤول عن السجن ، وتأكّد من تنفيذها » .

أخذ الضابط الرسالة وغادر الغرفة . وسرعان ما سمع صوت حصان في الساحة . فانطلق الضابط بسرعة إلى لوفستين .

قال الأمير :

« يا طفلتي ، إن عيد الزنبقة سيكون الأحد القادم ـ أي بعد ثلاثة أيام . خذي الخمسمئة غيلدر هذه وارتدي ثياباً جميلة » .

سألت روزا :

« كيف ترغب أن يكون لباسي ، سيدي ؟ »

قال الأمير :

« إرتدي زي العروس » .

الفصل التاسع والعشرون

العصا الغليظة

علينا أن نعود إلى غريفوس و كورنيليوس في لوفستين لنعرف ما كانا يفعلان طيلة ذلك الوقت .

لم يعرف غريفوس ، حتى منتصف النهار ، أن إبنته قد غادرت المنزل . كان باعتقاده أنها في غرفتها تبكي ، بينما كانت في الحقيقة في طريقها إلى هارلم . ولما حان وقت العشاء ، راح ينتظر وينتظر ، ثم ذهب إلى غرفتها ليناديها . فقرع الباب ، لكنها لم تجب . كان الباب مغلقاً ؛ فخلعه ؛ لكن روزا لم تكن هناك .

ولما اكتشف غريفوس أن ابنته قد رحلت ، ثار غضبه كثيراً . فذهب إلى فان بيرل ونعته بأسوأ ألقاب خطرت بباله ، وراح يبعثر أثاث الغرفة . لم ينبس كورنيليوس ببنت شفة . بل كان من الحزن البالغ بحيث لم يسعه الاجابة أو التحرّك حين بادر غريفوس إلى ضربه .

ثم ذهب غريفوس إلى صديقه جاكوب ، لكنه لم يجده فتساءل إن كان جاكوب قد فرّ مع روزا . ولم يعد يعرف بماذا يفكر .

في صباح اليوم الثالث بعد رحيل روزا ، جاء غريفوس إلى غرفة كورنيليوس وهو غاضب أكثر من المعتاد .

كان كورنيليوس واقفاً أمام النافذة ينظر باتجاه دورت . فالحمامات ما زالت هناك ، تطير حول النافذة . لكن الأمل تلاشى من فؤاده . ترى أين هي روزا ؟ وهل يعقل أن لا تعود إليه ؟ هل يحتمل ألا تبعث برسالة ؟ ما كان يفعله غريفوس لها ؟ لعله كان قاسياً معها . لم يستطع كورنيليوس تحمّل الفكرة . شعر بالوهن الشديد . أراد أن يفعل شيئاً ما ، أراد أن يكتب إلى روزا . لكن أين هي ؟ كما أن غريفوس أخذ منه الورق والقلم . حاول أن يفكر بطريقة ما للهرب من السجن .

فقال :

« لكن كيف أستطيع الهرب ؟ فالنافذة مدعمة بالقضبان والباب متين ، وغريفوس متيقظ . لعل غريفوس يضربني يوماً ما ، فامسك بعنقه وأقتله . ثم أهبط السلم وأُخرج روزا من غرفتها ــ لكنه والد روزا ! فلن تحبني روزا إن قتلت أنا

والدها، مهما كان قاسياً. كلا! هذه الخطة ليست مجدية»

ثم دخل غريفوس الغرفة، وبيده عصا غليظة. كانت عيناه تلمعان غضباً. وكان من الواضح أنه عازم على الشر. سمع كورنيليوس قدوم غريفوس، فلم يلتفت. كان يغني:

أنا زهرة إبنة النار،
تجوب الدنيا دون أن تموت .
أنا ابنة الماء والهواء،
طفلة الأرض والسماء.

زادت الأغنية في غيظ غريفوس، فقال له:

«مرحى أيها المغني، ألا تسمعني؟»

إستدار كورنيليوس وقال له:

«عمت صباحاً». ثم تابع الغناء:

قدماي مغروستان في الأرض الطيبة .

وأرفع رأسي إلى السماء؛
روحي جاءت من الجنة وقت مولدي.
وتعود إلى الجنة حين مماتي .

مشى غريفوس إلى السجين وهزّ بعصاه قائلاً:

«ألا ترى. لقد أحضرت ما يحملك على قول الحقيقة؟».

قال كورينليوس:

«هل تقصد أنك ستضربني بهذه؟».

أجابَ غريفوس:

«أجل، ولِمَ لا؟».

أجاب كورنيليوس:

«لأن حارس السجن يفقد عمله إن هو رفع يده على السجين. ذلك وارد في القانون».

قال غريفوس:

«هذه ليست يدي؛ بل هي عصا. يذكر القانون أن من المحظور عليّ أن أضربك بيدي، لكنه لم يأت على ذكر العصا».

قال كورنيليوس:

«يذكر القانون أن من يرفع العصا، يُضرب بالعصا».

صاح غريفوس:

«أوه، إذن أنت تجبرني على استخدام شيء آخر». ثم تناول سكيناً.

هرع حراس آخرون إلى المكان وأمسكوا بكورنيليوس. فوقف غريفوس وقال:

«طبقاً للقانون، فإن السجين الذي يضرب حارس السجن يعدم رمياً بالرصاص. ستعدم رمياً بالرصاص. ستؤخذ خارج السجن وتطلق عليك النار في الحال».

الفصل الثلاثون

الكلمات الرقيقة

دخل ضابط الغرفة وسأل:

«هل هذه الغرفة رقم ١١؟».

«أجل أيها الكابتن».

«أين السجين؟».

قال كورنيليوس:

«ها أنا سيدي».

فسأله:

«هل أنت الدكتور كورنيليوس فان بيرل؟».

«أجل سيدي».

فقال الضابط:

«إذن، إتبعني».

«قال كورنيليوس لغريفوس:

«أوه، هل سيأخذني ليطلق النار عليّ؟».

فقال غريفوس:

«بلى، وهو ضابط خاص لدى أمير الأورانج، لذا ثق بأنك ستقتل في الحال».

فكّر كورنيليوس: «وهكذا ينتهي كل شيء. لن أستطيع منح إسمي إلى طفل أو إلى زهرة أو كتاب، وهي ثلاثة أشياء يُذكر بها المرء».

سار الضابط يتبعه كورنيليوس. وفكّر كورنيليوس:

«كذلك لن أرى روزا ثانية».

وصلا إلى خارج السجن، وتوقّع كورنيليوس أن يرى صفاً من الجنود جاهزين لإطلاق النار عليه. رأى بعض الجنود، لكنهم غير واقفين بالصف، ولا يحملون البنادق. بل كانوا يتحدثون بعضهم إلى بعض ليس إلاّ.

أسرع غريفوس خارج السجن وراء كورنيليوس يصيح عليه بصفات مشينة. فقال كورنيليوس:

«لا أعتقد أن من حق هذا الرجل أن يحدثني الآن على هذا النحو».

فأجاب الضابط:

«ليس لك أن تتوقع بأن يبتهج لك وقد ضربته ضرباً مبرحاً».

أجاب كورنيليوس:

«لم أضربه إلاّ لأنه هجم عليّ بالسكين».

أجاب الضابط:

«حسناً، دعه يتكلم. فما الفرق في الأمر عندك الآن؟».

غمر قلب فان بيرل شعور بارد حيال هذه الكلمات. فقال:

«أخبرني، إلى أين نحن ذاهبون الآن؟».

أشار الضابط إلى عربة تجرها أربعة جياد وقال:

«إصعد».

قال كورنيليوس

«أوه، سينقلونني إلى وسط المدينة قبل قتلي».

فقال جندي يقف قريباً:

«كلا، لا أعتقد بأنهم سيفعلون ذلك، لكنهم أحياناً يأخذون السجين إلى بلدته ويطلقون النار عليه أمام منزله».

قال كورنيليوس :

« أشكرك أشكرك على هذه الكلمات الرقيقة» .

تابعت العربة سيرها . فهتف غريفوس عندما ابتعدت :

«أعِدْ إليّ ابنتي» .

فكّر كورنيليوس :«إن هم أخذوني إلى دورت، سأرى منزلي وحديقتي - لكن ليس في الحديقة أزهار الآن» .

تابعت العربة سيرها طوال النهار . فمرّت بـ دورت وعبرت روتردام، ثم وصلت إلى دلفت . في الساعة الخامسة مساء، كانوا قد قطعوا نحو ثمانين ميلاً .

قال كورنيليوس للضابط :

«إلى أين نحن ذاهبون؟» .

لم يجب الضابط .

أمضوا الليلة في العربة . وفي صباح اليوم التالي، رأى كورنيليوس أنهم خلف مدينة ليدن كان بحر الشمال إلى يساره وزويدر زي إلى يمينه . وبعد ثلاث ساعات ، دخلوا إلى هارلم .

الفصل الحادي والثلاثون

عيد الزنبق

كان الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٦٧٣ يوماً عظيماً في مدينة هارلم. لطالما كان يوم عيد عظيم - عيد الزنبق. ففي تلك السنة، كانت للعيد أهمية خاصة بسبب الزنبقة السوداء.

جُهِّز كل شيء، في الساحة المكشوفة كي يمنح الأمير جائزة المئة ألف غيلدر إلى الشخص السعيد الذي استنبت الزنبقة السوداء. سار كبار القوم في المدينة بموكب طويل إلى الساحة. وأول الوافدين كان السيد فان هربيسن مرتدياً الأسود. وجاء وراءه أعضاء آخرون من لجنة زارعي الأزهار في هارلم. وقدم بعدهم العلماء والقضاة والضباط واللوردات. ووسط أولئك جميعاً حُملت الزنبقة السوداء. كانت تنتصب فوق قماش من الحرير الأبيض يحيط به إطار ذهبي.

هتف الجمهور حين ظهر السيد فان هريسن وهتفوا ثانية لزارعي الأزهار وللموردات والقضاة والعلماء ـ وهتفوا أكثر حين ظهرت الزنبقة السوداء

ثم راحوا ينظرون ليروا من هو الشخص السعيد الذي سيتلقى الجائزة . أين هو زارع الزنبقة ؟

تحدث السيد فان هريسن لبعض الوقت ثم قال:

«والآن، سأطلب من الفائز بالجائزة، زارع الزنبقة السوداء، التقدّم وإظهار نفسه».

تقدّم إسحق بوكستل. لم تكن عيناه مركّزتين على الزنبقة السوداء، بل على كيس الذهب ـ المئة ألف غيلدر ـ الموضوع بجانبها.

هتف الناس.

بقي إسحق بوكستل ينظر إلى الذهب، ؛ لكنه لم يستطع الحصول عليه ، إذ لم يحضر أمير الأورانج بعد . وفكّر بوكستل : « سيصل الأمير خلال دقائق ، فيمنحني كيس الذهب ويقول أن الزنبقة قد سُمّيت زنبقة بوكستل السوداء » .

نظر إلى الوجوه في الحشد ؛ وكان يخشى أن يرى هناك وجه روزا غريفوس . فهل كانت هناك ؟ وهل من خطر في أن تظهر وتتسبب بالمتاعب؟ نظر بانتباه . كلا ، إنها ليست هناك .

كان بوسط الساحة مكان مرتفع وُضع فيه كرسي مذهب لأمير الأورانج ، وطاولة توضع عليها الزنبقة السوداء .

سار صفان من الفتيات الجميلات إلى جانبي الزنبقة فيما رفعت هذه ووضعت فوق الطاولة . فهتف الناس من جديد .

على مسافة بعيدة ، وفي الشارع وراء الجمهور، كان يمكن رؤية عربة قادمة . ـ كان يمكن رؤيتها، لكن أنظار الجميع كانت متجهة صوب الزنبقة السوداء. العربة كان يعلوها الغبار، وكانت الجياد متعبة. فقد سارت مسافة طويلة .

الفصل الثاني والثلاثون

أنا أحب الزهور!

كان كورنيليوس فان بيرل يجلس مع الضابط داخل العربة. كان كورنيليوس متعباً من الرحلة الطويلة، فتطلع من نافذة العربة إلى الناس، وسأل يقول:

«لِمَ حشود الناس هذه في الساحة؟ هل هو عيد؟»

فأجاب الضابط:

«أجل إنه عيد».

قال كورنيليوس بأسى:

«آه، لا أكترث كثيراً بالأعياد، فلم يعد هناك ما يفرحني في هذا العالم».

تابعت العربة سيرها. فقال كورنيليوس:

«أرى الكثير من الأزهار. فهل هو عيد الزهور؟»

أجاب الضابط:

«بلى، إنه عيد الزهور العظيم. فسكان هارلم يعشقون الأزهار».

صاح كورنيليوس:

ما أجمل تلك الألوان! ـ أنا أحب الزهور!».

فقال الضابط للسائق:

«قف. قف كي يرى السيد الأزهار».

قال فان بيرل:

«شكراً للطفك. لكن فرح الآخرين يؤلمني. قل للرجل أن يتابع سيره».

قال الضابط:

« كما تشاء . أمرت السائق بالوقوف لاعتقادي بأنك تحب الزهور ، وهذا عيد واحدة من الزهور » .

سأل كورنيليوس:

« أيُّ زهرة ؟ » .

«الزنبقة».

فصاح كورنيليوس

«الزنبقة! هل اليوم عيد الزنبق؟».

«أجل، لكن إن كان ذلك يؤلمك، فلنتابع السير».

خطرت لكورنيليوس فكرة، فسأل:

«هل تمنح الجائزة اليوم؟».

قال الضابط:

«أجل، اليوم تمنح الجائزة للزنبقة السوداء».

شحب وجه فان بيرل. وقال:

«آه، آسف لجميع أولئك الناس لأنهم لن يشاهدوا ما قد جاؤوا لرؤيته».

فسأل الضابط:

«ماذا تعني؟»

قال كورنيليوس:

«أعني أنهم جاؤوا لرؤية الزنبقة السوداء. لكن الزنبقة السوداء لن يأتي بها إلاّ شخص واحد أعرفه».

أجاب الضابط:

«إذن، فقد وجدها ذلك الشخص. جميع الناس في هارلم ينظرون الآن إلى الزنبقة السوداء».

أطلّ كورنيليوس برأسه من نافذة العربة وصاح:

«الزنبقة السوداء! أين هي؟ أين هي؟».

فقال الضابط:

«هناك! هناك على الطاولة».

صاح فان بيرل:

«إنني لا أراها».

قال الضابط:

«هيا بنا، يجب متابعة السير».

صاح كورنيليوس:

«أوه،دعني أراها. دعني أراها مرة أخرى. هل يمكنني ذلك؟ هل الزنبقة سوداء تماماً؟ سوداء كالفحم، من دون أي لون آخر؟ دعني أنزل من العربة وأراها عن كثب»

«هل انت مجنون؟ كيف لي أن أسمح بمثل هذا؟»

«أتوسل إليك!».

قال الضابط:

« هل نسيت أنك سجين ؟» .

فأجاب فان بيرل :

«إنني سجين، لكنّ يمكنك الوثوق بي. أعدك بأنني لن أهرب. أوه، دعني أرى الزنبقة!».

فقال الضابط:

«تابع السير!».

«أوه، كن شفوقاً بي. فحياتي كلها تتوقف على طيبتك. دعني أرى الزنبقة. أنت لا تعرف المشاعر التي تخالجني. فربما تلك كانت زنبقتي! لعلها الزنبقة التي سُرقت من روزا. أوه! دعني أنزل. يجب أن أرى الزهرة. يمكنك قتلي فيما بعد، لكن يجب أن أراها».

«إهدأ! وعد إلى العربة. فأمير الأورانج قادم، وإن رآك تعصي أوامري، غضب مني كثيراً».

عاد كورنيليوس مسرعاً إلى العربة، إذ لم يشأ أن يتسبب بمتاعب للضابط.

مرّ بعض رجال الأمير على صهوات جيادهم أمام العربة، ثم أطل كورنيليوس برأسه من النافذة ثانيـة، حين اقترب الأمير من عربته. نظر الأمير ثم توقف وسأل:

«من هذا الرجل؟».

قال الضابط وهو يقفز من العربة:

«سيـدي، إنه السجين الـذي احضرتـه من لوفستين طبقـاً لأوامرك».

قال الأمير:

«حسناً، ماذا يريد؟».

قال الضابط:

«أريد أن يتوقف هنا لوقت قصير».

فصاح فان بيرل:

أريد أن أرى الزنبقة السوداء. سيدي، أرجوك، دعني أرى الزنبقة السوداء؛ وبعدما أراها، سأكون جاهزاً للموت».

إلتفت الأمير إلى الضابط وقـال وهو ينظر الى كورنيليـوس ببرودة:

«أهـذا هـو السجين الـذي تسبب بمتـاعب كثيـرة في

لوفستين وحاول أن يقتل حارس السجن ؟ » .

بدا لكورنيليوس من تلك الكلمات وكأن الأمل كله قد تلاشى لديه. فالأمير يعرف كل شيء عنه. لم يحاول المقاومة أو الدفاع عن نفسه. وظهر للأمير مثل طفل صغير بائس لم يقترف أيّ ذنب ـ ورغم ذلك، فلم يكن لديه أي أمل؛ وقد فهم الأمير الموقف فقال:

«إسمح للسجين بالنزول ودعه يرى الزنبقة، فهي تستحق المشاهدة».

صاح كورنيليوس:

« أشكرك سيدي ، أشكرك » . كاد يسقط أرضاً فأسنده الضابط .

تابع الأمير سيره وهتف الجمهور وصدحت الموسيقى، ثم جلس على الكرسي المذهب بجانب الزنبقة.

الفصل الثالث والثلاثون

النهاية السعيدة

إقتاد أربعة جنود كورنيليوس إلى الزنبقة السوداء. وراح يزداد إستثارة كلما اقترب منها.

وفي النهاية وقع نظره عليها - الزهرة التي يستطيع رؤيتها مرة واحدة فقط. وقف صف من الفتيات الجميلات حولها. كانت رائعة - زهرة رائعة، ومع ذلك، فكلما نظر إليها، شعر بمزيد من الأسى. نظر حوله ليرى من يستطيع سؤاله - «من هو الزارع السعيد لهذا الشيء الجميل؟».

ثم وقف أمير الأورانج. وفيما راح ينظر إلى الجمهور، رأى ثلاثة أشخاص فقط. كان بوكستل أمامه ينظر إليه وعينه على المال بشوق. وإلى يمينه رأى كورنيليوس، وقد ركز ناظريه وقلبه وحياته وحبه في الزنبقة. وإلى اليسار كانت تقف روزا وقد لبست ثياب العروس، لكن الدموع كانت تملأ

عينيها، وقد وقف بجانبها أحد ضباطه الذي أوكل إليه السهر عليها.

تحدث الأمير بهدوء واتزان؛ وكان يستمع إليه خمسون ألف شخص. «تعرفون جميعاً سبب اجتماعنا اليوم. فقد مُنحت جائزة بقيمة مئة ألف غيلدر لمن يستطيع استنبات زنبقة سوداء. وها قد أنبتت الزنبقة السوداء. إنها هنا، أمامنا. أما قصة زرعها وإسم زارعها فسيدّونان في سجلّ الشرف الخاص بهذه المدينة. والآن، فليتقدم صاحب الزنبقة».

نظر الأمير إلى الثلاثة الواقفين وسط الجمهور - بوكستل، كورنيليوس، وروزا. فأسرع بوكستل إلى الأمام، يدفع الناس عن طريقه. تطلع كورنيليوس وقام بحركة صغيرة ثم توقف. إذ ذاك رأى الضابط المسؤول عن روزا يقود الفتاة إلى الأمام.

فاحمر وجه بوكستل غضباً. وصاح كورنيليوس فرحاً: «روزا! روزا!»

قال الأمير:

«هذه الزنبقة لكِ، أليس كذلك يا طفلتي؟».

قالت روزا:

« أجل ، سيدي » .

قال كورنيليوس:

«أوه! هل نسيتني؟ لقد أحببتها، لكنها نسيتني » .

صاح بوكستل:

«آه، لقد ضاع كل شيء».

وتابع الأمير قائلاً:

«أطلق على هذه الزنبقة زنبقة روزا بيرل السوداء، إذ سيطلق على هذه السيدة مستقبلاً إسم روزا بيرل».

إندفع كورنيليوس إلى الأمام وقد جُنَّ من الفرح. تناول الأمير يد روزا ووضعها بيد كورنيليوس فان بيرل.

في تلك اللحظة، سقط رجل على الأرض. كان ذلك بوكستل. لقد ولّت كل آماله. رفعوه عن الأرض، لكنه كان ميتاً حتى آخر رمق. ورغم ذلك إستمر الإحتفال.

صدحت الموسيقى، وخرج زارعو الأزهار واللوردات والقضاة والعلماء من الساحة، وخرجت معهم روزا

وكورنيليوس، يمشيان يداً بيد.

جاؤوا إلى دار البلدة؛ حيث توقف الأمير وأشار إلى كيس المئة ألف غيلدر الذي حُمل إلى جانب الزنبقة وقال: «يصعب تحديد الذي فاز بالجائزة - أنت أم روزا؟ فأنت يا كورنيليوس فان بيرل أوجدت البصيلة، لكن هي التي زرعتها واعتنت بها حتى أصبحت زهرة. سأمنحها المال لدى زواجها. والمال جائزة تمنح لها، ليس لأنها زرعت الزنبقة وحسب. بل لأمانتها وشجاعتها».

ثم التفت الأمير إلى كورنيليوس؛ وقد أمسك بيده الصفحة المنزوعة من كتاب كورنيليوس دي ويت، وقال له:

«عليا أن تشكر روزا ليس بسبب زرعها الزنبقة وحسب، بل كذلك لإثباتها بأنك لا بدّ أن تخرج من السجن، فقد أُدخلت السجن لذنب لم تقترفه. وسيُعاد إليك منزلك وأراضيك وأموالك. لقد كنتُ صديقاً للأخوين دي ويت؛ وقد جاءت تسميتك تيمناً بكورنيليوس دي ويت. فحافظ على كرامة الإسم. فالأخوين دي ويت كانا رجلين عظيمين قتلا

أثناء غضب شعبي . إن بلدهما هولندا فخور بهما» .

ركع الحبيبان أمام الأمير الذي قال بحزن :

«آه ، أنتما سعيدان ، سعيدان أكثر من أميركما . فأنا أحلم بعظمة هولندا ، وأنتما تحلمان بجمالها وعظمتها الحقيقية - المتمثلة بجمال أزهارها » .

ثم ركب عربته وانطلق بعيداً .

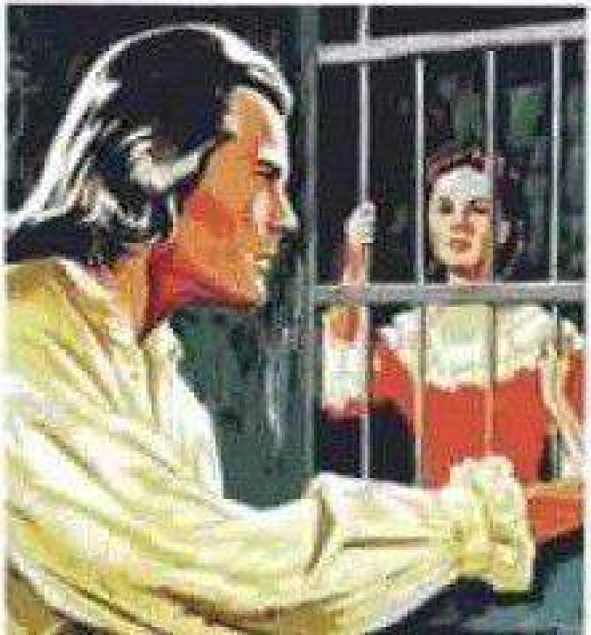
وهكذا تنتهي القصة .

تزوج كورنيليوس «روزا» ورزقا طفلين جميلين ، وكثيراً من الزنابق الجميلة . أما غريفوس العجوز ، فكان البستاني الذي حافظ على الزنابق كما يحرس حارس السجن سجناءه : فانتصبت الأزهار في صفوف مستقيمة ، فيما كان يروح جيئة وذهاباً يسقيها بما تحتاجه من الماء ، ولم تجرؤ قطة على الإقتراب من حديقة غريفوس .

وفوق باب المنزل حيث عاش كورنيليوس وروزا ، كُتبت هذه الكلمات :

«حق السعادة هو لمن قاسى الكثير» .

الزنبقة السوداء



ألكسندر دوما

أجمل القصص للناشئين

دار المعارف للطباعة والنشر